مقدمات كتب التراجم العربية منذ صدورها وحتى القرن الثاني عشر الهجري في مجال الدين: دراسة تحليلية

د. محمد عبدالجواد الباسع(*)

تمهيد

إن الاهتمام بالمقدمات موجود منذ زمن، وقد خصها العلماء بالشروح في القديم، وصارت من اهتمامات النقد الحديث، كما تناولها الباحثون بالدراسة لمعرفة منهجية التأليف في الحضارة العربية والإسلامية، وإننا لفي حاجة اليوم لدراستها كي نتعرف على مدى منهجية كتابتها، الأمر الذي يستلزم دراستها دراسة تحليلية، وهذا هو المقصود من تلك الدراسة.

أولاً: مشكلة الدراسة وأهميتها

تمثلت مشكلة الدراسة في ابتداء أغلب مصادر التراث العربي - ومنها كتب التراجم - بمقدمات متنوعة في الطول والقصر والموضوعات والأفكار والاستهلال والختام، وغير معروف يقينًا مدى منهجية هذه المقدمات.

كما تكمن أهمية تلك الدراسة في إيضاح كنه تلك المقدمات، وما إذا كانت قد كُتِبت وفق منهج معين، أم أنها كُتِبت وفقًا لرؤية كاتبها، واستيضاح مدى نضج تلك المنهجية، وفي أي المراحل الزمنية كانت أنضج.

ثانيًا: أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى:

١- استنتاج عناصر المنهج الذي كانت تكتب وفقًا له مقدمات كتب التراجم.

٢- تحديد الوظائف التي كانت تؤديها مقدمات كتب التراجم.

٣- إيضاح مدى نضج منهجية كتابة مقدمات كتب التراجم.

ثالثًا: تساؤلات الدراسة

أراد الباحث من إجراء هذه الدراسة الإجابة عن سؤال عام: هل كان هناك منهج

---

* مدرس بقسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب - جامعة بنها.

ثابت لكتابة مقدمة كتب التراجم، وما معالم هذا المنهج إن وُجد، وإلى أي مدى كان مستوى نضجه ؟ .

وتضمن هذا السؤال مجموعة من التساؤلات، هي:

١- كيف بدأت مقدمة مؤلف الكتاب، وما عناصرها؟.

٢- هل اشتملت كل مقدمات مؤلفي كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ على ديباجة للمؤلف، وما عناصر تلك الديباجة، وهل تساوت كلها في الطول؟ .

٣- هل بدأت كل مقدمات مؤلفي كتب التراجم بالبسملة، وهل كانت من وضع المؤلف أم من وضع غيره، وما سبب عدم اشتمال بعضها على البسملة؟.

٤ - هل اشتملت كل مقدمات كتب التراجم على "الحمدلة"، وما سبب عدم اشتمال بعضها على "الحمدلة"، وهل كانت كل صيغ "الحمدلة" من وضع المؤلف، وهل تناسبت صيغ "الحمدلة" التي وردت بالمقدمات في الطول؟.

٥ - ما نسبة مقدمات كتب التراجم التي اشتملت على الشهادتين مقارنة بتلك التي لم تشتمل عليها ؟ وما السبب الكامن خلف اشتمال بعض المقدمات على الشهادتين وعدم اشتمال بعضها الآخر؟، هل هو المجال الموضوعي، أم الفترة الزمنية، أم غير ذلك؟ .

٦- لماذا اشتملت بعض مقدمات كتب التراجم على "الصلاة على النبي" صلى الله عليه وسلم، ولم يشتمل عليها بعضها الآخر؟ وهل توافقت كل المقدمات في صيغة "الصلاة على النبي" صلى الله عليه وسلم؟ .

٧ - ما العناصر التي اشتملت عليها "المقدمة المنهجية" بمقدمات كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ هل اشتملت على: مدخل تمهيدي، ومبررات ومنهج التأليف؟، وهل أوضحت مجال تغطية الكتاب وحدوده؟، وهل ذكرت الدراسات السابقة مصادر ومراجع الكتاب؟ وهل أوضحت موقع الكتاب بين نظرائه؟، وهل بينت تقسيمات الكتاب، ونظام ترتيبه، وعدد مداخله، وعناصر المادة المرجعية المقدمة؟، وهل أوضحت مدلولات الرموز والمختصرات، وأشارت إلى المجتمع الموجه له الكتاب؟، وهل ذكرت عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، وتاريخ تأليفه؟ .

٨- هل هناك ترتيب مقنن لإيراد تلك العناصر بالمقدمة، أم أنه أمر خاضع لرؤية كل مؤلف؟ .

٩- هل وُجدت منهجية مقننة لاختتام مقدمات كتب التراجم محل الدراسة، وهل خُتِمت كل المقدمات وفقًا لهذه المنهجية؟ .

١٠- كيف خُتِمت المقدمات التي لم تختم بالخاتمة المقننة؟ وما أكثر العناصر المنهجية التي خُتِمت بها مقدمات كتب التراجم، وما أقلها؟.

رابعًا: حدود الدراسة

نظرًا لأن كتب التراجم عمومًا ومقدماتها - بصفة خاصة - هي مرآة للمجتمع الإسلامي بأبعاده المختلفة: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، وغيرها، لذا نجدها محل اهتمام فئات مختلفة من المتخصصين، ومن بينهم فئة متخصصي المكتبات والمعلومات؛ ولذا فقد تناول هذا البحث دراسة مقدمات قطاع واسع من كتب التراجم منذ صدورها وحتى القرن الثاني عشر الهجري وهو القطاع الديني. وهذه الفترة الزمنية هي عصر نبغ فيه علماء المسلمين على اختلاف مشاربهم وتألق فيه التراث العربي الإسلامي في مختلف مجالات المعرفة.

وقد تم اختيار هذه الفئة الموضوعية لما تتميز به من الثراء العددي؛ فقد بلغ عددها - وفقًا لحصر الدكتورة سميرة خليل[١] والدكتورة داليا الحلوجي[٢] ١١٢ كتابًا، من أصل ١٨٩ كتابًا تغطي كل أنواع كتب التراجم العامة والمتخصصة، بما يساوي ٦٠٪ من مجموع كتب التراجم بهاتين الدراستين. وهذه نسبة كبيرة تدل على مدى الثراء العددي لهذه الفئة الموضوعية، كما أن فئة تراجم القطاع الديني تتميز بثرائها الموضوعي، فمنها تراجم الصحابة، وتراجم القراء والمفسرين، وتراجم رواة الحديث، وتراجم الفقهاء، على اختلاف مذاهبهم، بالإضافة إلى تراجم الصوفية.

ومن بين الكتب الـ ١١٢ التي تم حصرها، وُجد ٢٥ كتابًا خلت من المقدمة، هي: "كتاب البخاري في الصحابة" (ت٢٥٦هـ)، و"كتاب يحيى إبراهيم بن منده" (ت٣٠١هـ)، و"ذيل الاستيعاب" لأبي بكر بن فتحون (ت ق٥هـ)، و"ذيل الاستيعاب" لأبي موسى الإصبهاني، و"تجريد أسماء الصحابة" للذهبي(ت٧٤٨هـ)، و"طبقات القراء" لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ)، و"معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" للذهبي (ت٧٤٨هـ)، و"طبقات القراء" للعفيفي المطري (ت٨٥١هـ)، و"طبقات المفسرين" للداودي

(١) سميرة خليل محمود خليل: كتب التراجم في التراث العربي الإسلامي حتى القرن السادس الهجري: دراسة لتغطيتها وتنظيمها. ص ٢٧ .

(٢) داليا عبد الستار الحلوجي: كتب التراجم في التراث العربي من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة. ص ص ٥٢-٦٠ .

(ت٩٤٥هـ)، و"الطبقات الكبرى" لابن سعد (ت٢٣٠هـ)، و"تاريخ ابن معين" لعثمان بن سعيد الدارمي (ت٢٨٠هـ)، و"كتاب الطبقات" لخليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)، و"التاريخ الكبير" للبخاري (ت٢٥٦هـ)، وكتاب "الضعفاء الصغير" للبخاري (٢٥٦هـ)، و"الضعفاء" لعلي بن المديني (ت٢٥٨هـ)، و"معرفة الثقات" للعجلي (ت٢٦١هـ)، وكتاب "الضعفاء والمتروكين" للنسائي (ت٣٠٣ هـ)، و"الضعفاء والمتروكين" للبستي (ت٣٠٣هـ)، و"التحبير في المعجم الكبير" للسمعاني (ت٥٦٢هـ)، و"تهذيب الكمال" للمزي (ت٧٤٢هـ)، و"الإكمال عمن في مسند أحمد من الرجال" للحسيني (ت٧٦٥هـ)، و"طبقات الحفاظ" للسيوطي (ت٩١١هـ)، و"طبقات الشافعية" للجرجاني (ت٤٨٩هـ)، و"طبقات الشافعية" لابن الساعي (ت٦٧٤هـ)، و"الجواهر المضية في طبقات الحنفية" للقرشي (ت٧٧٥هـ).

مبررات خلو هذه الكتب من مقدمة للمؤلف

وهناك أكثر من احتمال لخلو هذه الكتب من مقدمة للمؤلف، منها:

الاحتمال الأول: اعتماد المؤلف على وجود تقديم للكتاب الأصل موضح فيه بعض أو معظم عناصر التقديم، وخاصة فيما يتعلق بكتب التتمات والذيول، مثل كتاب: ذيل الاستيعاب لأبي موسى الإصبهاني، وذيل الاستيعاب لأبي بكر بن فتحون (القرن الخامس هـ)، وتهذيب الكمال للمزي (ت٧٤٢هـ).

الاحتمال الثاني: كون هذه الكتب أجزاءً لكتب، طُبعت بعد ذلك مستقلة ومن ثم أتت خالية من مقدمة المؤلف، لأن المؤلف كتب المقدمة للكتاب الجامع، مثل كتاب البخاري في الصحابة (ت٢٥٦هـ)، وكتاب يحيى بن إبراهيم بن منده (٣٠١هـ).

الاحتمال الثالث: فقدان المقدمة، ذلك أن المقدمة تكون في مستهل العمل، وبالتالي فإن سقوطها أمر وارد، خاصة أن الكتب كانت في أوراق مجمعة غير محكمة التجليد[١] .

كما استُبعِدت ثلاثة كتب لأنها مكررة بعناوين مختلفة، وهي: "غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، و"اختيار معرفة الرجال" المعروف برجال الكشي للطوسي (ت٤٦٠ هـ)، و"طبقات الفقهاء" لابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ).

كما لم تتم دراسة ٤٢ كتابًا لعدم العثور عليها بأي وسيلة وهي:" المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين" للبستي (ت٣٥٤هـ)، و"رجال مسلم" لأبي بكر بن

(١) المرجع السابق . ص٧٨ .

منجويه (ت٤٢٨هـ)، و"تذهيب تهذيب الكمال" للذهبي (ت٧٤٨هـ)، و"طبقات الحفاظ" أو تذكرة الحفاظ للذهبي (ت٧٤٨هـ)، و"التذكرة برجال العشرة" للحسيني (ت٧٦٥هـ)، و"ذيل ميزان الاعتدال" للعراقي (ت٨٠٦هـ)، و"رجال سنن الدارقطني" للعراقي (ت٨٠٦هـ)، و"رجال صحيح ابن حبان" للعراقي (ت٨٠٦هـ)، وطبقات الفقهاء والمحدثين للهيثم بن عدي (ت٢٠٧هـ)، وتاريخ فقهاء قرطبة لابن حبان (ت٣٢٧هـ)، و"تاريخ فقهاء تونس" لأبي محمد بن خلف التميمي (ت٣٣٣هـ)، و"طبقات علماء أفريقية" للخشني (ت٣٦٦هـ)، و"المذهب في ذكر شيوخ المذهب" لأبي حفص عمر بن المطوحي (ت٤٤٠هـ)، و"كتاب أبي الطيب الطبري" (ت٤٥٠هـ)، و"كتاب عماد الدين بن باطيش الموصلي" (ت٦٥٥هـ)، و"الاحتفاء في ذيل طبقات الشافعية" لابن الساعي وهو ذيل للكتاب السابق، و"الكافي في معرفة علماء مذهب الشافعي" لأبي عبد الله محمد بن عبدالرحمن (ت ٨٠٠هـ)، و"المطالب العلية في مناقب الشافعية" لمحمد بن الحسن السجستي (ت٧٧٦هـ)، و"العقد المذهب في طبقات حملة المذهب" لابن الملقن (ت٨٠٤هـ)، و"المرقاة الأرفعية في طبقات الشافعية" للفيروزآبادي (ت٨١٤هـ)، و"بهجة الناظرين في تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين" للغزي (ت٨٦٤هـ)، و"الذيل على طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة" للشريف عز الدين حمزة بن أحمد الدمشقي الحسيني (ت٨٧٤هـ)، و"اللمع الألمعية لأعيان الشافعية" للخيضري (ت٨٩٤هـ)، و"أخبار أبي حنيفة وأصحابه" للصيمري (ت٤٣٦هـ)، و"نظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان" لابن دقماق (ت٨٠٩هـ)، و"الألطاف الخفية في أشراف الحنفية" للفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، و"طبقات الحنفية" للمقريزي (ت٨٤٥هـ)، و"طبقات الحنفية" لبدر الدين العيني (ت٨٥٥هـ)، و"مختصرات ذيل طبقات الحنابلة" لأحمد بن نصر الله البغدادي (ت٨٢٠هـ) ولبرهان الدين بن مفلح (ت٨٨٤هـ) وللعليم (ت ٩٢٧هـ)، و"الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب" لابن فرحون اليعمري (ت٧٩٩هـ)، و"نيل الابتهاج بالذيل على الديباج" لأبي العباس أحمد بن بابا السوداني (ت١٠٣٦هـ)، و"طبقات الصوفية" للحكيم الترمذي (ت٢٥٥هـ)، و"طبقات النساك" لابن سعيد الأعرابي (ت٣٤١هـ)، و"أخبار الصوفية والزهاد" لمحمد بن داود النيسابوري (ت٣٤٢هـ)، و"طبقات الصوفية" لأبي العباس أحمد ابن محمد اليسوي (ت٣٩٦هـ)، و"تذكرة الأولياء" للنيسابوري (ت القرن ٧هـ)، و"التشوف إلى معرفة رجال التصوف" لأبي يعقوب بن يوسف الزيات (ت٦٢٧هـ)، و"بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الجيلاني" لابن جهضم الهمداني (ت٧١٣هـ)، و"روض الرياحين في حكايات الصالحين" لعبد الله بن أسعد اليماني

(ت٧٦٧هـ)، و"طبقات الأولياء" للسيوطي (ت٩١١هـ)، و"الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية" للمناوي (ت١٠١٦هـ)، و"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لابن مريم (ت١٠١٤هـ). فلربما بعض هذه الكتب أو معظمها لم يصل إلينا، وإنما حصرتها كلٌّ من الدكتورة سميرة خليل والدكتورة داليا الحلوجي من الببليوجرافيات القديمة كالفهرست، ومفتاح السعادة، وكشف الظنون وغيرها.

ومن ثم فقد بلغ مجموع الكتب التي تمت دراسة مقدماتها ٤٢ كتابًا تمثل ٣٧,٥٪ من كتب تراجم القطاع الديني، ويعتقد الباحث أن هذه النسبة ممثلة لمجتمع الدراسة، فهي موزعة على جميع حدود المجال الزمني للدراسة، ففي القرن الثالث الهجري تمت دراسة كتاب واحد، وفي القرن الرابع الهجري خمسة كتب، وفي القرن الخامس الهجري ثمانية كتب، وفي القرن السادس خمسة كتب، وفي القرن السابع سبعة كتب، وفي القرن التاسع تسعة كتب، وفي القرن العاشر كتابين، وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر كتاب واحد في كل منهما.

كما أن مقدمات كتب عينة الدراسة موزعة على جميع الفئات الموضوعية لمجتمع الدراسة؛ إذ تمت دراسة أربعة كتب لتراجم الصحابة، واثنين للقراء والمفسرين، وسبعة عشر لرواة الحديث، واثنين للفقهاء عامة ، واثنين للمالكية واثنين للحنفية، وخمسة للشافعية، واثنين للحنابلة، وستة كتب للصوفية.

خامسًا: عينة الدراسة

وفقًا لما سبق، تمت دراسة مقدمات الكتب التالية: "التاريخ الصغير" للبخاري (ت٢٥٦هـ)، و"الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، و"الثقات" لابن حبان (ت٣٥٤هـ)، و"مشاهير علماء الأمصار" لابن حبان (ت٣٥٤هـ)، و"المعجم الصغير" للطبراني (ت٣٦٠هـ)، و"الثقات" لابن شاهين (ت٣٨٥هـ)، و"طبقات الصوفية" للسلمي (ت٤١٢هـ)، و"حلية الأولياء" لأبي نعيم الإصبهاني (ت٤٣٠هـ)، و"معرفة الصحابة" (ت٤٣٠هـ)، و"طبقات الفقهاء الشافعية" للعبادي (ت٤٥٨هـ)، و"رجال الطوسي" للطوسي (ت٤٦٠هـ)، و"الاستيعاب" لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، و"الرسالة القشيرية" للقشيري (ت٤٦٥هـ)، و"طبقات الفقهاء" للشيرازي (ت٤٧٦هـ)، و"رجال البخاري" للكلاباذي (ت٥٠٧هـ)، و"طبقات الحنابلة" لابن أبي يعلى (ت٥٢٦هـ)، و"ترتيب المدارك" للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، و"طبقات فقهاء اليمن" للجعدي (ت٥٨٦هـ)، و"صفة الصفوة" لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، و"الكمال" للجماعيلي (ت٦٠٠هـ)، و"أسد الغابة" لابن الأثير

(ت٦٣٠هـ)، "تهـذيب الأسـمـاء واللغـات" للنووي (ت٦٧٦هـ)، و"الكاشف" للذهبي (ت٧٤٨هـ)، و"المُغني في الضعفاء" للذهبي (ت٧٤٨هـ)، و"ميزان الاعتدال" للذهبي (ت٧٤٨هـ)، و"ذيل تذكرة الحفاظ" للحسيني (ت٧٦٥هـ)، و"طبقات الشافعية" للسبكي (ت٧٧١هـ)، و"طبقات الشافعية" للأسنوي (ت٧٧٢هـ)، و"الذيل على طبقات الحنابلة" لابن رجب (ت٧٩٥هـ)، و"طبقات الأولياء" لابن الملقن (ت٨٠٤هـ)، و"نهاية الدرايات" لابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ)، و"الإصابة" لابن حجر (ت٨٥٢هـ)، و"تهذيب التهذيب" لابن حجر(ت٨٥٢هـ)، و"طبقات المدلسين" لابن حجر (ت٨٥٢هـ)، و"لسان الميزان" لابن حجر (ت٨٥٢هـ)، و"لحظ الألحاظ" لابن فهد الهاشمي (ت٨٧١هـ)، و"تاج التراجم" لابن قطلوبغا (ت٨٧٩هـ)، و"طبقات المفسرين" للسيوطي (ت٩١١هـ)، و"الطبقات الكبرى" للشعراني (ت٩٧٣هـ)، و"الطبقات السنية" للغزي (ت١٠١٠هـ)، و"شجرة النور" لابن مخلوف (ت١١٦٠هـ).

سادسًا: منهج الدراسة وأدواتها

اعتمد الباحث - لإجراء هذه الدراسة - على منهج " تحليل المحتوى" لتحليل مقدمات كتب التراجم - محل الدراسة - للوقوف على تغيرها وتطورها، والخروج بالمؤشرات والظواهر، وتفسيرها.

وقد اعتمد الباحث في تحليل وتقييم مقدمات كتب التراجم - محل الدراسة - على "قائمة مراجعة"، شملت مجموعة من العناصر التقييمية للأجزاء الثلاثة لجسم المقدمة؛ فانقسمت إلى: عناصر لتحليل وتقييم "الديباجة"، وعناصر لتحليل وتقييم "المقدمة المنهجية"، وعناصر لتحليل وتقييم "الخاتمة".

سابعًا: إجراءات الدراسة ومراحلها

مرّت هذه الدراسة بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: ضبط الحدود النوعية والزمنية والموضوعية؛ فقد كان يرغب الباحث في دراسة مقدمات المصادر التراثية، من موسوعات ومعاجم وببليوجرافيات وكتب تراجم، إلا أن هذا الاتساع في التغطية حال بين الباحث وبين إجراء هذه الدراسة، فحاول الاقتصار على عيون هذه المصادر التراثية، إلا أن عيون المصادر التراثية لم يكن أمرًا متفقًا عليه بين الباحثين والمهتمين بهذا المجال، فرغب الباحث عن ذلك واقتصر على دراسة مقدمات كتب التراجم، لأسباب، منها:

١] أن كتب التراجم من أقدم مصادر التراث العربي ظهورًا:

فقد ظهرت في أوائل القرن الثالث الهجري، وأقدم ما وصلنا منها كتابان، هما: "الطبقات الكبرى" لابن سعد(ت٢٣٠هـ) و"طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي(ت٢٣١هـ) [١]، وهناك مؤلفات أقدم لكنها فُقِدت، ومنها "طبقات أهل العلم والجهل" لواصل بن عطاء (ت١٣١هـ)، و"طبقات الشعراء" لليزيدي(ت٢٠٠هـ)، و"طبقات الفقهاء والمحدثين"، و"طبقات من روى عن النبي صلى الله عليه وسلم" للهيثم بن عدي(ت٢٠٧هـ)، و"طبقات الواقدي"(ت٢٠٧هـ)[٢] .

٢] أن كتب التراجم ظهرت في الحضارة الإسلامية بعد أن تبلورت شخصيتها وتحددت مواقفها، ولهذا فهي ليست "بدائية" ولا "بسيطة"، لأنها تنتمي إلى عصر نضج الحضارة التي ظهرت فيها [٣]، ومن ثم كانت مقدماتها أكثر نضجًا.

٣] التنوع النوعي والموضوعي لهذه النوعية من مصادر التراث:

فمنها تراجم الصحابة، والمحدثين، والقراء والمفسرين، وفقهاء المذاهب، والصوفية، والقضاة، واللغويين والنحاة، والأدباء والشعراء، والحكماء والأطباء، والولاة والحكام والوزراء، إضافة إلى التراجم العامة، وتراجم البلدان، وتراجم القرون .

وقد بلغ عدد مفرداتها حتى القرن السادس الهجري ٦٢ كتابًا وفقًا لحصر الدكتورة سميرة خليل [٤]، كما بلغ عدد مفرداتها من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة ١٦٢ كتابًا وفقًا لحصر الدكتورة داليا الحلوجي [٥] . بل قارب عدد مفرداتها (٥٠٠) كتاب عند بعض الباحثين [٦] .

مما حدا بالباحث إلى الاقتصار على نوعية واحدة من كتب التراجم، وهي تراجم القطاع الديني، لأنها أثرى مجالات كتب التراجم، كما أنها أكثر المجالات عددًا؛ إذ زاد عددها على (١٠٠) كتاب.

---

(١) وداد القاضي: معاجم التراجم: تنظيمها الداخلي وأهميتها الثقافية.ص ص ٨١- ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق. ص٢٨٦ .

(٣) المرجع السابق. ص٨٦ .

(٤) سميرة خليل محمود خليل: كتب التراجم في التراث العربي الإسلامي حتى القرن السادس الهجري. مرجع سابق. ص ٢٧ .

(٥) داليا عبد الستار الحلوجي: كتب التراجم في التراث العربي من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة. مرجع سابق. ص ص ٥٢-٦٠ .

(٦) منصور علي عبد السميع: الإعلام بكتب تراجم الأعلام: دراسة دليل ببليوجرافي مصنف. ص ٥ .

المرحلة الثانية: حصر كتب التراجم التي تقع ضمن حدود الدراسة.

وقد اعتمد الباحث في حصرها بشكل أساسي على دراستين، هما: دراسة سميرة خليل: "كتب التراجم في التراث العربي الإسلامي حتى القرن السادس الهجري: دراسة لتغطيتها وتنظيمها"، ودراسة داليا عبد الستار الحلوجي. "كتب التراجم في التراث العربي من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة"، وذلك لأنهما دراستان أكاديميتان في نقطة البحث نفسها فهما أكثر ضبطًا من الكتب العامة.

المرحلة الثالثة: الحصول على مقدمات كتب التراجم التي تقع ضمن حدود الدراسة.

تم ذلك من خلال دار الكتب والوثائق القومية ، والمكتبة المركزية بجامعة القاهرة، ومكتبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، ومكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة، وبعض مكتبات كليات جامعة الأزهر، ومكتبة جمعية المعارف العلمية، وهي مكتبة شخصية متخصصة في علوم الحديث، إضافة إلى مصادر المعلومات الإلكترونية كموقع ودود http://www.wadod.com/.، وموقع المكتبة الوقفية http://www.waqfeya.com/، وموقع المصطفى http://www.al-mostafa.info/books/htm/disp.php?page=list&n=44، والمكتبة الشاملة على الموقع http://shamela.ws/وموقع http:// www.islamport.com/، وموقع مكتبة المشكاة الإسلامية http://www.almeshkat.net/ books/index.php، وموقع الوراق http://www.alwaraq.net/Core/index.jsp?option=1، وغير ها من المواقع الإلكترونية التي تتيح تحميل كتب التراث العربي.

المرحلة الرابعة: قراءة تحليلية للمقدمات التي تم الحصول عليها؛ لتحديد معالمها واستنباط المنهجية التي كانت تكتب وفقاً لها.

المرحلة الخامسة: تحديد الظواهر والمؤشرات التي نتجت عن دراسة المقدمات دراسة تحليلية تقييمية ومحاولة تفسيرها وتبريرها.

ثامنًا: الدراسات السابقة

الدراسة الأولى: "مقومات مناهج التأليف العربي في مقدمات المؤلفين: الأدب" والتي أعدها هاني صبحي العمد، ونشرتها الجامعة الأردنية بعمّان سنة ١٩٨٧ واحتلت قرابة ٢٠٠ صفحة مقسمة على ثلاثة فصول: تناول الفصل الأول مناهج التأليف وتقسيم المؤلفات وطرائق تبويبها واسم المصنَّف وعنوانه. وتناول في الفصل الثاني ثلاثة موضوعات: عناصر المقدمات، وموضوع المقدمات، ومصادر التأليف وتوثيق

المعلومات. أما الفصل الثالث فقد تناول أسباب التأليف ودوافعه، وقيمة المقدمات الفنية والتاريخية.

وقد تناولت هذه الدراسة مقدمات أربعين كتابًا من الكتب التراثية في مجال الأدب حتى منتصف القرن السابع الهجري فقط. وذلك من خلال اثنى عشر عنصرًا تقييميًا.

الدراسة الثانية: بعنوان "مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع" للدكتور عباس أرحيلة، وقد نشرت في الرباط بالمغرب سنة ٢٠٠٣م. وهي عبارة عن دراسة لمقدمة الكتاب في التراث الإسلامي من بداية التأليف في تاريخ الإسلام إلى بداية التأليفات العربية الحديثة، وتُعد محاولة لتحديد مفهوم المقدمة وإبراز مكوناتها، مع التركيز على جزئية واحدة من هذه المكونات، وهي التي تتعلق بحديث المؤلف عن موضوعه.

وغاية الباحث من هذه الدراسة الكشف عما يتميز به خطاب المقدمات في كتب التراث الإسلامي العربي، وما يطرحه ذلك الخطاب من قضايا، وما تعرب عنه تلك المقدمات من تصورات منهجية تخص التأليف في حضارة الإسلام وتبين منحنيات الإبداع فيه.

وقد قسّم الدكتور عباس أرحيلة كتابه إلى ثلاثة فصول: تناول الفصل الأول المقدمة في حركة التأليف في الإسلام، موضحًا أهمية التأليف عامة وفي حضارة الإسلام خاصة، ومنها أن استفتاح الكتب توجه إسلامي، وقد عالج هذا الفصل مفهوم المقدمة لغة واصطلاحًا مع ما ينوب عنها من مصطلحات، مبينًا أهمية المقدمة ووظيفتها وأنواعها، ومقارناً بين مقدمة الكتاب ومقدمة العلم. وقام في الفصل الثاني بفحص مكونات مقدمة الكتاب، ناظراً في ثوابتها ومتغيراتها، مقسماً إياها إلى سبعة أنواع من الخطاب. أما الفصل الثالث فهو عبارة عن خاتمة كتاب تناول فيها الخلاصة ونتائج دراسته التي انتهى فيها إلى أن القدماء قد أدركوا أهمية مقدمة الكتاب، وتنبهوا إلى ضرورة وجودها، وأن المقدمة في التأليف العربي قد تحققت بالصورة العلمية التي هي عليها الآن في مجالات البحث العلمي عامة[1].

الدراسة الثالثة: "كتب التراجم في التراث العربي من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة: دراسة مرجعية تحليلية" / إعداد داليا عبد الستار الحلوجي؛ إشراف سعد محمد الهجرسي، حامد زيان غانم ـ القاهرة: داليا الحلوجي،

(١) حسن المودن: قراءة في كتاب مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي. ص ص١ ـ ٣ .

٢٠٠٤، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم المكتبات والوثائق والمعلومات.

تناولت هذه الدراسة نشأة وتطور التأليف في مجال التراجم الإسلامية، والتوزيع الزمني والمكاني والموضوعي لمؤلفي كتب التراجم والتقديم في كتب التراجم في الإطار الزمني لدراستها، كما تناولت التغطيات والمحتوى والتنظيم في كتب التراجم، وخُتمت بالحديث عن التكنولوجيا وكتب التراجم، وقد تناولت "التقديم في كتب التراجم المرجعية" كجزء من الفصل الثاني.

تاسعاً: مكونات الدراسة

تتكون هذه الدراسة من جزئيتين: الأولى: مدخل نظري لإثبات أن هوية المقدمات منذ نشأتها وتطورها عربية أصيلة. الجزئية الثانية: وهي الدراسة التحليلية لمقدمات كتب تراجم القطاع الديني، وشملت فكرتين أساسيتين: الفكرة الأولى: الدراسة التحليلية للمقدمة التي سبقت مقدمة المؤلف، وذلك لأن ثلث كتب التراجم محل الدراسة بدأ بمقدمة سبقت مقدمة المؤلف، وهي جديرة بالتحليل، وذلك من خلال تحليل الديباجة التي بدأت بها، ومعرفة مدى ذكر سند وتاريخ تلقي الكتاب عن الشيخ، وتحديد الألفاظ التي تدل على السماع من الشيخ، ومعرفة مدى توقير وحب الطلاب لشيوخهم من خلال الألفاظ والأدعية التي ذكرها الطلاب.

ثانيًا: الدراسة التحليلية لمقدمة المؤلف، وذلك بتحليل أجزائها الثلاثة: الديباجة، والمقدمة المنهجية، وخاتمة المقدمة، تم تحليل الديباجة من خلال خمسة عناصر، هي: البسملة، والحمدلة، والشهادتان، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله، يلي ذلك تحليل المقدمة المنهجية من خلال ستة عشر عنصرًا مرتبة ترتيبًا تنازليًا وفق ورودها بالمقدمات، وهي: المجال والحدود، ومنهج التأليف، ومبررات التأليف، والمدخل التمهيدي، والدراسات السابقة، ونظام الترتيب، وتقسيم الكتاب، والمادة المرجعية، ومصادر الكتاب، وعنوان الكتاب، ودلالات الرموز والمختصرات، والمجتمع الموجه له الكتاب، وعدد المداخل، وموقع الكتاب بين نظرائه، اسم مؤلف الكتاب، وتاريخ تأليف الكتاب.

وأما الجزء الأخير من مقدمة المؤلف وهي "خاتمة المقدمة"، فقد تم تحليله من خلال واحد وعشرين عنصرًا مرتبة ترتيبًا تنازليًا وفق ورودها بالمقدمات: العنصر الأول وهو الدعاء الذي تم تحليله من خلال خمسة عشر عنصراً، مرتبة ترتيبًا تنازليًا وفق

ورودها بالمقدمات، بعد تحليل الدعاء ـ كعنصر أول من عناصر الخاتمة ـ تم استكمال تحليل الخاتمة من خلال: الثناء على الله تعالى، والتوكل على الله والاعتماد عليه والاستعانة به، ورد التوفيق إلى الله تعالى، والتماس العذر من القارئ إن وجد خطأ، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله وصحبه، وتهيئة القارئ لانتهاء المقدمة والشروع في الكتاب، وحمد الله تعالى، والسلام. وفيما يلي عرض الدراسة التحليلية لمقدمات كتب تراجم القطاع الديني.

مقدمات كتب تراجم القطاع الديني: مدخل تمهيدي

(١) أهمية مقدمات الكتب

"إن المتلقي هو الغائب الحاضر في كل عملية تأليف؛ و لذلك فكل قراءة أو كتابة يتوقف نجاحها على نجاح العلاقة التي تقام بين المؤلف والقارئ، وتبدأ هذه العلاقة بنوع من استدراج المتلقي لكسب موافقته للتصديق بالحكم وقبوله، لتنتهي بمحاولة إخضاعه وإذعانه ثم انقياده، وذلك لأن إيمان القارئ بالمؤلف شرط أساس لنجاح منهجه وبث خطته. على هذا الأساس تكون المقدمة هي الصورة المثالية التي يتطلع الكاتب إلى إنجازها؛ إذ عليها يترتب نجاح التلقي أو فشله، و إليها توكل مهمة توجيه القراءة و تنظيمها، و بالتالي تهيئ القارئ لاستقبال مشروع قيد الإنجاز، سيكون مجاله متن الكتاب. وبهذا تأخذ المقدمة وظيفة إقامة الاتصال التي قال بها مالينوفسكي وتبناها ياكوبسون؛ حيث اعتبرها من الرسائل التي تؤدي إلى ربط التواصل أو إطالته أو قطعه. فالمقدمة هي إذن بمثابة المدخل الذي يلج منه المتلقي إلى دهاليز النص ليمسك بخيوطه الأولية. وقد جعلهما جيرار جينيت من النصوص الموازية الدالة التي ترافق النصوص الرئيسة، والتي لا يمكن الاستغناء أو التغاضي عنها. وتكمن أهمية المقدمة في كونها أول المؤشرات التي تدخل في حوار مع المتلقي ، فتثير فيه نوعا من الإغراء والفضول العلمي والمعرفي، وإليهما توكل مهمة نجاح الكتاب في إثارة استجابة القارئ بالإقبال عليه و تداوله، أو النفور منه واستهجانه"[١] .

"فالمقدمة بمثابة الهوية الرسمية التي تدل على فكرة المؤلف وقدرته في إقامة البناء الذي يتوافر على الجزئيات والتفاصيل الدقيقة والغايات والأهداف والخطة والمنهج وأسلوب المعالجة وطريقة البحث وأصول الكتابة والتأليف"[٢] . كما أن هذه

(١) حافيظ إسماعيلي علوي: اللسانيات في الثقافة العربية وإشكالات التلقي.. اللسانيات التمهيدية نموذجًا. ص٢ .

(٢) هاني صبحي العمد: مقومات مناهج التأليف العربي في مقدمات المؤلف . ص ١٤٨ .

المقدمات تشكل مصدرًا من مصادر المعرفة المهمة التي يرجع إليها الباحثون والدارسون للاستدلال على محتويات الكتب واتجاهات الكتاب[١] . وتتبع أهمية المقدمات ـ أيضًا ـ من كونها تظهر ميول أصحابها ونزعاتهم واتجاهاتهم؛ وذلك لأن المؤلفين كانوا يتناولون في مقدماتهم قضايا تمس مجالهم العلمي بالنقد والتحليل والدراسة[٢] .

لذلك ينبغي أن يكون الابتداء حسنًا مقبولاً، دالاً على الغرض؛ فالفكرة الأولى عن شيء أو أمر أو شخص تَثْبُت وتَقِرُّ في النفس؛ فإن كانت حَسَنةً صَعُب تهجينها، وإن كانت سيئة عَزَّ تزيينها. ولهذا عني علماء البلاغة بمبادئ الكلام، وعقدوا له الفصول في كتبهم ، ونبهوا على ما ينبغي للكاتب في هذا الشأن[٣] .

ولم تكن أهمية الخطاب المقدماتي لتخفى على النقاد العرب القدامى ، فهي قديمة أصيلة في الثقافة العربية[٤]، وقد أولوها عناية فائقة؛ فعرفوها وأشاروا إلى أهميتها؛ فالكفوي يقول عند حديثه عن براعة الاستهلال: "البراعة: هي كمال الفضل، والسرور وحسن الفصاحة الخارجة عن نظائرها. وبرع الرجل: فاق أصحابه. وبراعة المطلع: أن يكون البيت صحيح السبك ، واضح المعنى، غير متعلق بما بعده، سالمًا من الحشو وتعقيد الكلام، سهل اللفظ، متناسب القسمين؛ بحيث لا يكون شطره الأول أجنبيًا من شطره الثاني، مناسبًا لمقتضى المقام، وسماه ابن المعتز حسن الابتداء؛ وفرَّعوا منه براعة الاستهلال، ومعناها عند أهل البلاغة: أن يذكر المؤلف في طالعة كتابه ما يشعر بمقصوده"[٥] .

كما أشار التفتازاني إلى أهميته في كونه يمثل "أول ما يقرع السمع، فإن كان عذبا حسن السبك صحيح المعنى أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه، وإلا أعرض عنه وإن كان الباقي في غاية الحسن"[٦] . "وإذا كان الابتداء حسنًا بديعًا ومليحًا رشيقا كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام"[٧] .

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠ .

(٣) محمد بن إبراهيم الحمد: الارتقاء بالكتابة . ص ٤٢ .

(٤) حافيظ إسماعيلي علوي: اللسانيات. مرجع سابق. ص٧ .

(٥) أبو البقاء الكفوي: الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. ج١ . ص)٢٤٤ .

(٦) سعد الدين التفتازاني: مختصر المعاني . ج١ . ص٢٩٦ .

(٧) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر . ج١ . ص ٤٣٧ .

وقد "نبه ابن المعتز على ضرورة الاهتمام بحسن الافتتاح، وجودة المطلع، وبراعة الاستهلال حينما سمى براعة الاستهلال بحسن الابتداء، وفي هذه التسمية تنبيه على تحسينها"[١]. وأكد العسكري على ذلك حينما قال: "أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان"[٢]. وأما القلقشندي فيذكر أن "من الأصول التي يعتمدها الكاتب حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال وتقديم مقدمة تناسب المكتوب فيه"[٣] .

و"يرجع حسن الافتتاح في المكاتبات إلى معنيين: المعنى الأول: أن يكون الحسن فيه راجعًا إلى المبتدأ به، إما بالافتتاح بالحمد لله كما في بعض المكاتبات، لأن النفوس تتشوف إلى الثناء على الله تعالى أو بالسلام الذي جعله الشارع مفتتح الخطاب أو نحو ذلك، وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب إليه من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك فإن أمر المكاتبات مبني على التملق واستجلاب الخواطر وتألف القلوب إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى على ما يقتضيه اصطلاح كل زمن في الابتداءات. المعنى الثاني: أن يكون الحسن فيه راجعًا إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ وصحة السبك ووضوح المعنى وتجنب الحشو وغير ذلك من موجبات التحسين" [٤].

(٢) التأصيل العربي للخطاب المقدماتي

"أدى شيوع الكتابة وتنامي حركة التأليف المنظم في الثقافة العربية الإسلامية - منذ منتصف القرن الهجري الثاني - إلى وعي العلماء العرب بضرورة تحديد ضوابط الكتابة، ووضع قواعد التأليف لتكون عمادًا للأدباء والكتاب والناشئين في إنتاج مؤلفاتهم. ويستشف من الأحكام والتصورات التي تضمنتها تلك الكتب، والتي تروم التقعيد لأفانين الكتابة وطرائق صناعة المؤلفات وتقديمها للقراء أن العرب قد ميزوا - في وقت مبكر من ثقافتهم - بين مستويين من الخطاب في البنية النصية لكل مُؤَلَّف: أحدهما: أساس، والآخر تمهيدي؛ فأما الأول: فيمثله متن الخطاب الذي يروم المؤلِّف إبلاغه للقراء المستهدفين؛ وأما الثاني فتجسده مجموع العناصر التي تسبقه باعتبارها خطابا واصفا للأول ومقدما له بين يدي القارئ. فقبل الشروع في عرض مضامين الكتاب وإبلاغ الخطاب المقصود، كان الكاتب العربي يعي - نظريًا على الأقل- أن عليه أن ينتج نصًا موازيا لنصه الأصلي، يهيئ فيه قارئه المفترض - ذهنيًا ونفسيًا ومعرفيًا-

(١) تقي الدين الحموي الأزراري: خزانة الأدب وغاية الأرب . ج١ . ص ١٩

(٢) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين. مرجع سابق. ج١ . ص ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا . ج١ . ص ٤٧ .

(٤) المرجع السابق، ج ٦ . ص ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

ليتلقى خطابه على النحو الأفضل، وذلك من خلال التصريح باسمه، وتحديد طبيعة موضوعه، وتعيين مجاله المعرفي، وكشف الدواعي الذاتية والموضوعية لتأليفه له، والإحالة على المنطلقات النظرية التي توجه تصوراته وأحكامه، والضوابط المنهجية التي تتحكم في طرائق عرضها وتحليلها والدفاع عنها"[١] .

ويتحدد نسق هذه العناصر فيما توافق القدامى على تسميته "الرؤوس الثمانية"، التي يقول عنها المقريزي: "اعلم أنَّ عادة القدماء من المُعلمين قد جرت أنْ يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب، وهي: الغرض والعنوان والمنفعة، والمرتبة، وصحة الكتاب، ومن أيّ صناعة هو وكم فيه من أجزاء، وأيّ أنحاء التعاليم المستعملة فيه"[٢] .

"ولا شك أن الفضل في التنبيه على القيمة الوظيفية للرؤوس الثمانية يعود إلى اليونان، وإذا كان ذلك يستشف من عبارة " القدماء من المعلمين" الواردة في النص السابق ، فإنه يتضح بجلاء عند الجاحظ (ت٢٥٥ هـ) الذي أرجع ذلك إلى الفيلسوف اليوناني ديموقريطس، حيث يقول: وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يُعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء، ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبة، والصحة، والصنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير.

فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنسب إليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفا به، وأن يكون مؤتلفا من أجزاء خمسة، وأن يكون مسندًا إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف.

فهل معنى ذلك أن وعي الكتاب العرب المسلمين بأهمية مكونات الخطاب المقدماتي وبوظيفتها التوجيهية بالنسبة إلى عملية قراءة متن الكتاب إنما تم في ضوء تأثرهم بهذا النص وبغيره من النصوص التوجيهية المشابهة؟ أم أن تصورات الأمم الأخرى - وخاصة اليونان - لطريقة بناء مقدمة الكتاب وترتيب عناصرها لم يكن لها أي تأثير يذكر؟ في رأي أرحيلة أن نص ديموقريطس الذي أورده الجاحظ لم يتردد عند أهل التأليف في الثقافة العربية، ومن ثم لم يجد سبيلا لتطبيقه في منهج تقديم الكتب عندهم، وأن هذا النص دخل أجواء الثقافة العربية الإسلامية في لحظة حاسمة تميزت - أساسًا - بتنامي حركة التأليف عند العرب، وبظهور كتب تقعد لعملية تأليف الكتب،

(١) يوسف الإدريسي: الخطاب المقدماتي عند العرب.. قراءة في مقدمة الكتاب للدكتور عباس أرحيلة. ص١ .
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار. ج١ . ص ص ٢ . ٣ .

وتحدد العناصر الواجب ذكرها في مستهل كل كتاب. وإضافة إلى هذا وذاك ، فقد صادف دخوله نضجَ تصورِ الكُتَّاب العرب للتأليف في مقدمات الكتب في حضارة الإسلام، إذ أصبح ذلك التصور واضحا ومكتملاً منذ القرن الثالث للهجرة. وليس في هذا الحكم أي ادعاء أو مجانبة للصواب، لأن دراسة مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وتتبع التحولات التي طرأت على بنياتها والعناصر المكونة لها من بداية التأليف في تاريخ الإسلام إلى بداية النهضة العربية الحديثة تبين بما لا يدع مجالا للشك أن الخطاب المقدماتي عند العرب قديما كان يستمد مقوماته من صميم الثقافة العربية الإسلامية، وظل يهتدي بالخطاب القرآني ويحذو حذوه في طريقة استهلال وافتتاح عملية الكتابة"[١] .

ويتفق الباحث مع هذا الرأي؛ ذلك لأن الغالب الأعم من افتتاحيات كتب التراجم الدينية تبدأ بالديباجة المكونة من البسملة والحمدلة والشهادة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الديباجة تختلف مضامينها باختلاف طبيعة وموضوع الكتاب؛ فلقد كان مؤلفو كتب التراجم محل الدراسة حريصين منذ الأسطر الأولى على وضع القارئ في المدار العلمي لكتابهم ، وتقديم بعض العناصر الأولية التي توحي بموضوع كتابهم وتلمح إليه بصورة تثير في نفس القارئ الرغبة في الاطلاع عليه.

"وقد يقول قائل: إن تأصيل العرب للخطاب المقدماتي ينحصر فقط في ديباجة الكتاب في التراث الإسلامي، ولا يعدوه إلى العناصر الأخرى، وإن وعي العرب بأهمية الرؤوس الثمانية وضرورة تصدير الكتب بها ، إنما تم في ضوء تأثرهم بالثقافات الدخيلة، وذلك ادعاء لا أساس له من الصحة، وتفنده شواهد مادية وحجج منطقية عديدة ، لعل أبرزها أن مقدمة الكتاب لم تكن شيئا طارئا في الثقافة العربية، ولكنها اتخذت ملامح جنينية أولى في الخطب والأشعار العربية منذ الجاهلية، وتطورت بعد ذلك بفضل تنامي حركة التأليف في الإسلام"[٢] .

"ويمكن أن يقال: إن الخطاب المقدماتي عند العرب قديمًا كان يستمد مقوماته من صميم الثقافة العربية الإسلامية، وظل يهتدي بالخطاب القرآني ويحذو حذوه في طريقة استهلال وافتتاح عملية الكتابة ، وإذا كانت هذه العناصر من ثوابت الكتاب الإسلامي، فلم يكن ينشد المؤلف من ورائها - فحسب- الامتثال لأمر الله ، والاقتداء بكتابه في الافتتاح بالحمد، ومطلق الثناء، بل يستهدف بها - أيضًا - التلميح إلى أن كتابه

(١) يوسف الإدريسي: الخطاب المقدماتي عند العرب. مرجع سابق. ص٣ .

(٢) المرجع السابق. ص٤ .

جاء بفضل الله وكرمه، وأنه من الأمور ذوات البال، ومن ثمة، إعداد القارئ نفسيًا وإدراكيا لقراءة الكتاب بشكل جيد"[١] .

الدراسة التحليلية لمقدمات كتب تراجم القطاع الديني:

أولاً: الدراسة التحليلية للمقدمة التي سبقت مقدمة المؤلف

بدأ ٣٠٪ من كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ بمقدمة قصيرة سبقت مقدمة مؤلف الكتاب، وهذه المقدمة هي من وضع أحد الطلاب الذين تلقوا الكتاب من الشيخ المؤلف؛ يدل على ذلك ذكر سند تلقي هذه الكتب عن الشيخ المؤلف. اشتملت هذه المقدمة على: ديباجة قصيرة، وسند وتاريخ تلقي الكتاب عن الشيخ، وألفاظ تدل على السماع من الشيخ، واسم الشيخ مصحوبًا بالألفاظ التوقيرية، والدعاء للشيخ. على النحو المبين فيما يلي.

(١) ديباجة قصيرة

اشتملت هذه الديباجة على البسملة، والصلاة والسلام على النبي محمد، مع اختلافات طفيفة، كما في مقدمة "معرفة الصحابة" التي قال فيها أحد الطلاب: "**بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين**". و"الثقات" لابن حبان التي قال فيها: "**بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا**". و"لحظ الألحاظ"، التي قال فيها "**بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم**". وزاد بعضهم في هذه الديباجة: حمد الله والثناء عليه، كما في "الذيل على طبقات الحنابلة"، التي قال فيها "**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى أزواجه الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى آله وأصحابه أجمعين**". أما مقدمة "الكاشف"فقد شملت حمد الله وشكره والثناء عليه والشهادتين، كما يلي: "**الحمد لله والشكر لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله**".

(٢) سند وتاريخ تلقي الكتاب عن الشيخ

بعد هذه الديباجة القصيرة يذكر الطالب سند تلقيه الكتاب عن الشيخ المؤلف؛ وذلك لإضفاء الموثوقية عليه أكثر، من أمثلة ذلك ما ورد في مقدمة "التاريخ الصغير"

---

(١) المرجع السابق. ص٣ .

حيث يقول أحد الطلاب: "أخبرنا أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الحافظ قال أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي بها قراءة عليه سنة تسع وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا أبو محمد زنجويه بن محمد النيسابوري قال حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري". ومحمد بن إسماعيل البخاري هو مؤلف الكتاب، وكذلك ما ورد بمقدمة "لحظ الألحاظ": "قال الشيخ جار الله بن فهد: أخبرنا الشيخان الحافظان الإمام القدوة شيخ السنة شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي نزيل الحرمين الشريفين والعلامة الرحالة شيخ المحدثين عز الدين أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي الشافعيان - رحمهما الله تعالى- شفاهًا عن الإمام الحافظ الرحالة تقي الدين أبي الفضل محمد بن النجم محمد بن محمد بن فهد الهاشمي العلوي المكي الهاشمي إذنا إن لم يكن سماعًا ولو لبعضه أما بعد حمد الله...".

وزاد بعض الطلاب على ذلك ذكر تاريخ تلقي الكتاب لإضفاء نوع من الثقة والتوثيق كما في "معرفة الصحابة": "أخبرنا: الإمام الأجل السيد الأوحد الحافظ زين الدين عماد الإسلام، فخر السنة، مجد الأئمة، ثقة الأمة، سيد الحفاظ أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار بن شيرويه الخسروي الديلمي رضي الله عنه، وعن والديه قراءة عليه من أصل سماعه، قال : أخبرنا الشيخ أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن المقرئ بأصفهان بقراءتي عليه في داره، في شهور سنة خمس وخمسمائة، قال: أخبرنا الشيخ الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران الحافظ رحمه الله قال: الحمد لله ... "، وفي "طبقات الحنابلة" قال أحد الطلاب: "حدثنا الشيخ الإمام الحافظ أبو العز عبد المغيث بن الحرث بن زهير الحربي قال حدثنا القاضي الإمام الأوحد السعيد الشهيد أبو الحسين محمد بن الحسين بن خلف الفراء الحنبلي رضي الله عنه من لفظه وكتابه وذلك في سنة أربع وعشرين وخمسمائة قال: الحمد لله ...".

(٣) ألفاظ تدل على السماع من الشيخ

كان الطالب ينهي سند تلقي الكتاب بألفاظ تدل على إخبار الشيخ له، مثل: "قال"، كما في "لحظ الألحاظ"، و"الثقات" لابن حبان، و"طبقات الحنابلة"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، أو: "أخبرنا الشيخ الإمام" كما في "معرفة الصحابة"، أو: "قال الشيخ الإمام" كما في "الذيل على طبقات الحنابلة"، و"حلية الأولياء"، و"صفة الصفوة"، و"أسد الغابة"، أو: "يقول" كما في "الكاشف"، أو: "قال شيخنا" كما في "الإصابة"، أو: "قال سيدنا الشيخ الإمام" كما في "نهاية الدرايات".

(٤) اسم الشيخ مصحوبًا بالألفاظ التوقيرية

بعد ذِكْر الطالب للألفاظ التي تدل على السماع من الشيخ المؤلف للكتاب ـ يذكر الطالب اسم الشيخ المؤلف، إما مجردًا من ألقاب التوقير ـ وذلك نادرًا ـ كما ورد في كتاب "الثقات" لابن حبان، الذي ورد فيه: "**قال أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي الحمد لله...**"، أو مصحوبًا بما يدل على التبجيل والتوقير والتعظيم لهؤلاء المشايخ ـ وذلك في الغالب ـ كما في مقدمة كتاب "نهاية الدرايات" التي قال فيها: "**سيدنا الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام بركة الأنام إمام الحفاظ...**"، وكما في مقدمة "معرفة الصحابة" التي قال فيها: "**الإمام الأجلُّ السيد الأوحد الحافظ زين الدين عماد الإسلام، فخر السنة، مجد الأئمة، ثقة الأمة، سيد الحفاظ...**"، وكما في "ذيل تذكرة الحفاظ" التي جاء فيها: "**السيد القدوة الإمام شيخ الإسلام دار العدل بالشام عين الفقهاء والمعتبرين...**"، وكما في "فقهاء الحنابلة": "**الشيخ الإمام، العالم المقرئ العامل الزاهد، الحافظ المحدث...**"، ومثله في "طبقات الصوفية"، و"أُسد الغابة"، و"الإصابة"، و"طبقات الحنابلة".

وهذه الألفاظ تدل على مدى تعظيم العلم والعلماء، ومدى توقيرهم والاعتراف بقدرهم وفضلهم، وهذه ظاهرة امتازت بها مقدمات كتب التراجم محل الدراسة، بل امتازت بها مقدمات الكتب التراثية عمومًا؛ ولا عجب في ذلك، فإن العلماء هم ورثة للأنبياء، كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ"[(١)]، و"الأنبياء لم يورثوا إلا العلم"[(٢)]، إلا أنه يُرى في بعض هذه الألفاظ التوقيرية التي استُخدمت في كتاب "معرفة الصحابة" نوع من المبالغة وربما التعدي، يتضح ذلك في لفظة "السيد الأوحد"، فهذا اللفظ لم يرتضه النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه، حينما قال له وفد بني عامر: " أنت سيدنا، قال: السيد الله"[(٣)] ، إلا أن هذا الطالب الذي كتب هذا اللفظ إنما أراد توقير شيخه وتعظيمه، ويُلتمس له العذر في ذلك، رحمهم الله جميعًا رحمة واسعة.

(٥) الدعاء للشيخ

أُتبع اسم المؤلف المصحوب بألفاظ التوقير والاحترام بالدعوات المتنوعة اعترافًا بالفضل وزيادة في الاحترام وأداءً لبعض الواجب؛ فبعضهم دعا للشيخ بالرحمة، كما

(١) البيهقي: شعب الإيمان. ج٢ ، ص ٢٦٢ .

(٢) ابن حبان: صحيح ابن حبان. ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣) البخاري : الأدب المفرد. ج١ ، ص٨٣ .

في: "حلية الأولياء"، و"طبقات الصوفية"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"لحظ الألحاظ"، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"معرفة الصحابة" التي قال فيها: "قال الشيخ الإمام الحافظ أبو تميم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحق بن موسى بن مهران الإصبهاني رحمه الله"، وبعضهم دعا له بأن يسامحه الله، كما في "الكاشف": "يقول محمد بن أحمد بن الذهبي، سامحه الله تعالى"، وبعضهم دعا بالترضي عنه، كما في "أُسد الغابة"، الذي قال عن شيخه: "المعروف بـ ابن الأثير رضي الله عنه"، و"طبقات الحنابلة"، بما نصه " ابن خلف الفراء الحنبلي رضي الله عنه"، وبعضهم دعا للشيخ "بطول العمر" كما في "الإصابة"، بما نصه: " أدام الله أيامه"، وبعضهم دعا "بإعادة بركته على المسلمين" كما في "نهاية الدرايات"، "أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركته". بهذه الألفاظ التوقيرية للشيخ انتهت المقدمة التي تسبق مقدمة المؤلف.

ثانيًا: الدراسة التحليلية لمقدمة المؤلف

كان الانتقال من مقدمة الطالب إلى مقدمة المؤلف يتم باستخدام عبارة "أما بعد" التي وردت في مقدمة "لحظ الألحاظ"، ومقدمة "نهاية الدرايات" التي يقول فيها: "قال سيدنا الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام بركة الأنام إمام الحفاظ شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد الجزري الشافعي أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركته أما بعد..."، كما كان يتم استخدام الفعل "قال" الذي وُجد في خمس مقدمات، منها: "معرفة الصحابة"، التي قال فيها: "أخبرنا الشيخ الإمام أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن مهران الحافظ رحمه الله قال...".

بعد هذه الفاصلة بين مقدمة الطالب ومقدمة المؤلف تأتي مقدمة المؤلف؛ وذلك في ٣٠٪ من كتب التراجم محل الدراسة، وهي تلك الكتب التي بدأت بمقدمة لأحد طلاب المؤلف، أما الـ٧٠٪ الباقية فقد بدأت مباشرة بمقدمة للمؤلف ذاته. وسواء بدأت مقدمة كتب التراجم بمقدمة للمؤلف أو بمقدمة لأحد طلابه - فقد وردت مقدمة المؤلف مشتملة على: ديباجة، ومقدمة منهجية، وخاتمة؛ على النحو المبين فيما يلي:

(١) الديباجة

"إن كل شارع في تأليفٍ يجب عليه صناعة أربعة أشياء، وهي: البسملة، والحمدلة، و الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشهادة. وهذا ما يسمى بالديباجة، والديباجة في مفتتح الكتب التراثية امتثال لتوجيه إسلاميّ، وتعبيرٌ عن صلة

العلماء في هذه الحضارة بالله تعالى الذي كان منه العون على البحث والتأليف، وكان منه السداد في استنباط المعاني والقدرة على صياغتها وتبليغها، واستكشاف الحقائق ونشرها وإذاعتها"[١] .

ومن خلال الدراسة التحليلية لمقدمات كتب تراجم القطاع الديني تبين خلو سبع مقدمات من ديباجة المؤلف، وهي: "رجال البخاري"، و"المُغني"، و"المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن شاهين، و"التاريخ الصغير"، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"الطبقات الكبرى"؛ أما مقدمة "المُغني" فقد خلت من الديباجة؛ إذ بدأت مقدمة المؤلف بالبعدية "أما بعد"، وكذلك "الطبقات الكبرى"، ولعل هذا تصرف من الناشر للكتاب المطبوع، والأرجح أنه تصرف من الناشر للكتاب الإلكتروني، وأما "رجال البخاري" و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"التاريخ الصغير"، و"الثقات" لابن حبان، و"المعجم الصغير". فيرجع ذلك إلى كون هذه الكتب قد بدأت بديباجة، ولكنها كانت لغير المؤلف.

أما المقدمات الخمس والعشرون الأخرى فقد اشتملت على ديباجة متفاوتة في الاختصار والطول؛ إذ أتت في ثمانية منها مختصرة لم تتعد بضع كلمات، وهذه الكتب هي: "تاج التراجم"، و""نهاية الدرايات"، و"رجال الطوسي"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"طبقات المدلسين"، و"طبقات الفقهاء"، و"طبقات فقهاء اليمن". ففي هذه الكتب لم تتعد الديباجة البسملة والصلاة والسلام على النبي وآله، كما فعل ابن حجر في "طبقات المدلسين"، وابن قطلوبغا ؛ إذ قالا "**بسم الله الرحمن الرحيم وسلام على عباده الذين اصطفى**"، وزاد الشيرازي إلى جانب ذلك قوله: "**حسبي الله وكفى**"، وزاد الجعدي قوله: "**ويه الثقة والمعونة**"، وزاد ابن الجزري الحمدلة إلى جانب الصلاة والسلام على النبي محمد فقال: " **حمداً لله تعالى حمداً لا يدرك غايته، ولا تعلم نهايته، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد صفوة الله من خلقه. وعلى آله وصحبه والتابعين له في خلقه وخلقه**"، وقال الطوسي: "**بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله حق حمده والصلاة على خير خلقه محمد وآله الطاهرين من عترته وسلم تسليماً**"، وقال العبادي: "**الحمد لله المحمود بكل لسان، المعبود بكل مكان، والصلاة على محمد المصطفى ورسوله المجتبى وعلى آله خير آل وأصحابه في كل حال**"، وزاد الحسيني على ذلك الترضي عن الآل والصحب؛ فأتت ديباجته مشتملة على الحمدلة والصلاة على النبي والترضي عن الآل، فقال: "**الحمد لله تعالى على نعمائه وصلى الله**

(١) عباس أرحيلة: الحمدلة في ديباجة مقدمة الكتاب في الثقافة الإسلامية. مصدر إلكتروني.

وسلم على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورضي عن آله وصحبه خير أوليائه"

وأما في باقي كتب التراجم التي اشتملت على "الديباجة" فأتت الديباجة أكثر تفصيلاً مما سبق، ووصلت في بعضها إلى خمسة وعشرين سطرًا في صفحتين ونصف، كما في "طبقات الصوفية"، وإلى خمس وثلاثين سطرًا في ثلاث صفحات كما في "ترتيب المدارك".

وقد اشتملت "الديباجة" في أغلب كتب التراجم على: البسملة، والحمدلة، والشهادتين، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله، على النحو الموضح فيما يلي:

١) البسملة

بدأ ٨٨٪ من المقدمات محل الدراسة بالبسملة، وهذه الكتب هي: "الكمال"، و"طبقات المفسرين"، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"تراجم الحنفية"، و"الثقات" لابن حبان، و"صفة الصفوة"، و"الاستيعاب"، و"الجرح والتعديل"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"طبقات الفقهاء"، و"طبقات المدلسين"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"رجال الطوسي"، و"تاج التراجم"، و"ترتيب المدارك"، و"طبقات الصوفية"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"الكاشف"، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الأولياء"، و"لسان الميزان"، و"تهذيب التهذيب"، و"ميزان الاعتدال"، و"شجرة النور".

وأكبر الظن أن البسملة في هذه المقدمات ليست كلها من وضع المؤلف، وإنما وضعها الناشر التقليدي أو الناشر الإلكتروني، ويدل على ذلك أنها كتبت في سطر مستقل يسبق المقدمة، أو ربما وضعها الناسخ، ويعزز هذا القول ما ذكره ابن المنصور اليمني: "إذا نسخ شيئًا من كتب العلوم الشرعية، فينبغي أن يكون على طهارة مستقبلاً القبلة، طاهر البدن والثياب، بحبر طاهر، ويبتدئ كل كتاب بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم، فإن كان الكتاب مبدوءًا فيه بخطبة، يتضمن حمد الله تعالى والصلاة على رسوله، كتبها بعد البسملة وإلا كتب هو ذلك بعدها، ثم كتب باقي الكتاب"[1]، أو ربما وضعها أحد طلاب الشيخ؛ يدل على ذلك تلك العبارات التي تشير إلى سند تلقي الكتاب من التلميذ إلى الشيخ والتي تنتهي باسم الشيخ مصنف الكتاب؛ كما في كتب: "التاريخ الصغير"، و"حلية الأولياء"، و"أسد الغابة"، و"الإصابة"، و"طبقات الحنابلة"، و"لحظ

(١) ابن المنصور اليمني: آداب العلماء والمتعلمين. ج١ ، ص٢٣ .

الألحاظ"، و"معرفة الصحابة"، و"نهاية الدرايات"، و"المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن شاهين، و"الذيل على طبقات الحنابلة". ومثال ذلك: ما ورد في أول مقدمة "التاريخ الصغير": "بسم الله الرحمن الرحيم أخبرنا أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الحافظ قال أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي بها قراءة عليه سنة تسع وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا أبو محمد زنجويه بن محمد النيسابوري قال حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري".

وسواء كانت "البسملة" من وضع المؤلف، أو من وضع الناسخ أو الناشر. فقد بدأت بها سبع وثلاثون مقدمة من مقدمات كتب التراجم محل الدراسة، ومن ثم خلت خمس مقدمات من البسملة، وهي: "الطبقات الكبرى"، و"المُغني"، و"رجال البخاري"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"تذكرة الحفاظ"؛ فبدأ اثنان منها بـ "البعدية"، وهما: "الطبقات الكبرى"، و"المُغني"، وبدأت مقدمة "رجال البخاري" بالصلاة على النبي، وأما مقدمة "ذيل تذكرة الحفاظ" فقد بدأت بمقدمة لأحد طلاب الشيخ ورد فيها سند تلقيه، ثم مقدمة الشيخ التي لم تبدأ أيضًا بالبسملة وإنما بدأت بالحمد، كما يلي: "يقول جار الله ابن فهد... قالوا أخبرنا به مؤلفه فقال... الحمد لله تعالى..."، وأما مقدمة "تهذيب الأسماء واللغات" فقد بدأها المؤلف بالحمد: " الحمد لله خالق المصنوعات".

ويُفسر الباحث ذلك بأنه ربما حدث تصرف من قبل الناشرين في عرض مقدمة المؤلف؛ إذ كان جُل اهتمامهم هو نشر متن الكتاب فقط دون الاهتمام بالمقدمة أو الفهرس أو غيرهما، أو أن البسملة قد فُقِدت؛ ويُؤيد هذا الرأي الأستاذ الدكتور عبدالستار الحلوجي في هامش كتابه "المخطوط العربي" حينما أراد تفسير خلو بعض الكتب من الديباجة والبسملة، فقال: "وقد تشذ بعض الكتب على تلك القاعدة فتدخل في الموضوع مباشرة بدون مقدمة، كالذي نراه في كتاب سيبويه وكتاب سر النحو، أو لعل مقدمتي هذين الكتابين قد فقدتا"[1].

٢) الحمدلة

١- حقيقة الحمدلة في ديباجة الكتاب

يُراد من إثبات الحمد في ديباجة الكتاب الثناءُ على الله تعالى بما هو أهله بما فيه من أوصاف الجلال ونعوت الكمال، ويكون شكرًا لنِعَمِه الكثيرة والتي منها تأليف هذا

(١) عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي . ص ١٥١ .

الكتاب، و"الحمد أعمُّ من الشكر؛ لأنه شكرٌ وزيادة، فالحمد معناه الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد"[١] .

و"صيغة الحمد لله أبلغ لما فيها من معنى الاستغراق والثبوت والاستمرار على ما هو مقرر في علم المعاني، وذهب ذاهبون إلى أن صيغة أحمد الله أبلغ لأن القائل: الحمد لله حاك لكون الحمد لله بخلاف القائل أحمد الله فإنه حامد بنفسه"[٢] . و"جمهور الناس على رفع الدال من "الحمدُ لله" بالرفع مبتدأ وخبر وسبيل الخبر أن يفيد، فما الفائدة في هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمد لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك: حمدت الله حمدًا، والذي يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله"[٣] . و"الحميد من صفات الله تعالى بمعنى المحمود على كل حال؛ وهو من الأسماء الحسنى فعيل بمعنى مفعول ، فالتحميد كثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، والتحميد أبلغ من الحمد، وإنه لَحَمَّاد لله، ومحمد هذا الاسم منه كأنه حُمدَ مرة بعد أُخرى"[٤] .

و"ومن محبته لحمده والثناء عليه؛ أنه جعل حَمْدَه مِفتاحَ كل كلام ذي بال...، وافتَتَحَ كتابَه بحمده...، واشتقَّ لأحَبِّ خَلْقِه إليه من الحمد اسمَيْنِ يَتضمَّنان كَثرةَ حمْدِه وفضْلِه وهما: محمد وأحمد"[٥] .

و"التحميدات في أدب التأليف المُنْطَلَقُ فيها القرآن الكريم، ثم أصبحت من تقاليد كتابة الرسائل مع عبد الحميد الكاتب (١٣٢هـ)، الذي أطال التحميدات ومن ذلك انتقلت إلى مقدمات الكتب عامة، فأصبح الحمدُ لله بدءَ كل مقال"[٦] كما هو الغالب في مقدمات كتب التراجم محل الدراسة؛ فلم تُذكر أيُّ صيغة "للحمدلة" في مقدمات ثمانية كتب، هي: "الذيل على طبقات الحنابلة"، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"التاريخ الصغير"، و"الثقات" لابن شاهين، و"المعجم الصغير"، و"المُغني"، و"رجال البخاري"، و"الطبقات الكبرى"؛ أما الكتب الخمسة الأولى، فلم تُذكر الحمدلة في مقدماتها؛ لوجود مقدمة لأحد الطلاب تسبق مقدمة الشيخ، وهذه المقدمة التي كتبها أحد الطلاب اشتملت على "الديباجة"، وهذه الديباجات اشتمل اثنان منها على الحمدلة؛ وهي مقدمة "الذيل على

(١) ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ج١، ص٥٨ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. مرجع سابق. ج٦ ، ص ص٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. ج١ ، ص١٣٥ .

(٤) ابن منظور: لسان العرب. ج٣ ، ص١٥٥ .

(٥) ابن القيم: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. ج٤ ، ص١٤٧٨ .

(٦) عباس أرحيلة: الحمدلة في ديباجة مقدمة الكتاب في الثقافة الإسلامية. مرجع سابق. مصدر إلكتروني.

طبقات الحنابلة" التي قال فيها: "الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أزواجه الطيبات الطاهرات، أمهات المؤمنين، وعلى آله وأصحابه أجمعين"، ومقدمة "مشاهير علماء الأمصار"، التي قال فيها: "الحمد لله الواحد المبرأ من إشراك المشركين، الفرد المنزه عن إلحاد الملحدين الذي ليس بمكيف فيحاط بالحواس ولا بذي غاية فيوصف بالأنفاس، لا يدرك فكر القلوب كنه ربوبيته ولا فطن العقول بعلم كيفية وحدانيته، وقد دلت الدلالات الواضحات على ربوبيته والآيات المحكمات على ألوهيته حتى اضطربت له العقول بأنه خالق واطمأنت إليه الأنفس بأنه رازق "، وأما مقدمتا: "المُغني" و"رجال البخاري" فلعل السبب في عدم اشتمالهما على "الحمدلة" راجع إلى أنهما قد وصلتا إلينا مبتورتين غير مشتملتين على الديباجة كاملة، وأما مقدمة "الطبقات الكبرى" فلم يستطع الباحث الحصول على المقدمة كاملة، وإنما تمكن من الحصول على المقدمة بدءًا من البعدية فقط، فلربما اشتملت على "الحمدلة" وربما لم تشتمل.

وأما المقدمات الأربع والثلاثون الأخرى - التي تمثل ٨٠٪ من المقدمات محل الدراسة - فقد اشتملت كلها على "الحمدلة" بصيغ مختلفة وعبارات متفاوتة في الطول؛ فأتى بعضها مختصراً لا يتعدى كلمتين، كما فعل ابن قطلوبغا، وابن الجوزي، فقالا في مقدمتهما: "الحمد لله"، وحمد الله ابنُ عبد البر بثلاث كلمات، فقال: "بحمد الله أبدأ"؛ وزاد الطوسي والشيرازي كلمةً رابعةً، فقالا: "الحمد لله حق حمده".

كما أتى بعضها مطولاً يتراوح ما بين عدة كلمات وعدة أسطر؛ فزاد بعضها على عشرة أسطر، كما في "طبقات الحنابلة"، و"حلية الأولياء"، وزاد بعضها على خمسة عشر سطرًا، كما فعل السلمي، وزاد بعضها على ثلاثين سطرًا كما في "ترتيب المدارك". ويُرْجِع الباحث هذه الإطالة في صيغ الحمد إلى:

١- إتْباعُ المؤلفِ صيغةَ الحمد بصيغ الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه.

٢- اتخاذ المؤلف صيغة الحمد كمدخل تمهيدي لموضوع كتابه، كما فعل السلمي، الذي قال: "الحمدُ لله، الذي أظهر آثارَ قدرته، وأنوارَ عِزَّته، في كل وقت وزمانٍ، وحينٍ وأوان. وعَمَر كلَّ عَصْرٍ من الأعصار، بنبي مبعوثٍ، يَدُلُ الخلقَ، ويُرشِدهم إليه. إلى أن خَتم الأنبياءَ والرسلَ، بالنبيِّ الأشرفِ، والرسولِ الأعلى، محمدٍ صلى الله عليه، وعلى جميع أنبياء اللهِ ورُسُله. وأَتْبَع الأنبياءَ، عليهم السّلام، بالأولياءَ، يَخْلفُونهم في سَنَنِهم، ويحملون أُمَّتهم على طريقتهم وسَمْتِهم ..."، وكما فعل ابن حجر في "تهذيب التهذيب"، بقوله "الحمد لله الذي تفرد بالبقاء والكمال، قسم بين عباده الأرزاق والآجال، وجعلهم

شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وملوكًا وسوقة ليتناصفوا، وبعث الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة، وختمهم بخيرته من خليقته السالك بتأييده الطريق المستقيم على المحجة".

ولم تختلف الحمدلة في الطول والقصر فحسب، بل اختلفت أيضًا في مدى توافقها وموضوع الكتاب، فأتى بعضها عامًا غير متوافق وموضوع الكتاب، وخاصة المختصرة منها، كالسيوطي الذي قال: "**الحمد لله الذي أسبغ علينا جزيل النعم**"، وابن أبي حاتم، الذي قال: "**الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**".

ولم تكن كل الصيغ المختصرة عامةً، إذ أتت صيغ حمد مختصرة وهي في الوقت نفسه موافقة لموضوع الكتاب، مثل: "**الحمد لله خالق المصنوعات، وبارئ البريات، ومدبر الكائنات ومصرف الألسن الناطقات، مفضل لغة العرب على سائر اللغات**" التي وردت بكتاب "تهذيب الأسماء واللغات"، وكذلك "**الحمد لله المحمود بكل لسان، معروف بالجود والإحسان، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان**" بكتاب "لسان الميزان". وأفضل منها قول المؤلف نفسه في كتابه الآخر "الإصابة": "**الحمد لله الذي أحصى كل شيء عددًا، ورفع بعض خلقه على بعض فكانوا طرائق وقددًا**".

كذلك لم تكن صيغ الحمد المطولة موافقة كلها لموضوع الكتاب، فقد أتت صيغ حمد مطولة وصلت إلى اثني عشر سطرًا لكنها كانت صيغًا عامة لا تتصل بموضوع الكتاب، مثلما قال ابن أبي يعلى: "**الحمد لله العلي العظيم، السميع البصير، ذي الفضل الواسع والمنن التوابع، والنعم السوابغ والحجج البوالغ، علا فكان فوق سبع سمواته، على عرشه استوى يعلم السر وأخفى ويسمع الكلام والنجوى أنزل القرآن بعلمه...**"

فالملاحظ هنا أنه من الممكن أن تكون هذه الحمدلة لكتاب تراجم، كما أنه من الممكن أيضًا أن تكون لكتاب في العقيدة، أو كتاب في الرقائق، أو مقدمة لخطبة جمعة.

وكما حمدَ بعضُ المؤلفين ربهم بجملة اسمية كما فعل القاضي عياض حيث قال:"**الحمد لله**"، وكما فعل الهاشمي، حيث قال: "**حمدًا لله**"، وابن عبد البر الذي قال: "**بحمد الله أبدأ**". فقد حمد غيرُهم ربَه بجملة فعلية، فقال: "**أحمد الله حمدًا لا يدرك غايته ولا تعلم نهايته**" كما في "نهاية الدرايات".

ومع أن الصيغ المطولة لم تكن كلها موافقة لموضوع الكتاب، إلا أنه كلما كانت صيغة الحمد أكثر طولاً كانت أكثر موافقة لموضوع الكتاب غالبًا.

٣) الشهادتان

خلت خمس وعشرون مقدمة - بما يمثل ٦٠٪ من المقدمات محل الدراسة - من الشهادتين، هذه الكتب هي: "التاريخ الصغير"، و"الجرح والتعديل"، و"المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن شاهين، و"طبقات الصوفية"، و"حلية الأولياء"، و"معرفة الصحابة"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"رجال الطوسي"، و"الاستيعاب"، و"طبقات الفقهاء"، و"رجال البخاري"، و"ترتيب المدارك"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"صفة الصفوة"، و"أُسد الغابة"، و"المُغني"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"نهاية الدرايات"، و"طبقات المدلسين"، و"تاج التراجم"، و"الطبقات الكبرى"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور".

واشتملت السبع عشرة مقدمة الباقية - بما يمثل ٤٠٪ من المقدمات محل الدراسة - على الشهادتين، وهي: "الثقات" لابن حبان، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الحنابلة"، و"الكمال"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"الكاشف"، و"ميزان الاعتدال"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"طبقات الأولياء"، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"الإصابة"، و"تهذيب التهذيب"، و"لسان الميزان"، و"لحظ الألحاظ"، و"طبقات المفسرين".

وقد حاول الباحث الوصول إلى نقاط تشابه بين هذه الكتب للوصول لسبب عدم اشتمالها على الشهادتين فافترض أن "المجال الموضوعي" قد يكون السبب، لأن هذه الكتب تختلف فيما بينها في المجال الموضوعي؛ فمنها "طبقات فقهاء، و"رواة حديث"، و"تراجم قراء"، و"تراجم صحابة"؛ ومن ثم لم يكن المجال الموضوعي السبب في عدم اشتمال مقدمات تلك الكتب على شهادتين.

وافترض الباحث أن الفترة الزمنية لتأليف الكتاب قد تكون السبب في عدم اشتمال مقدمات تلك الكتب على الشهادتين، كأن تكون الكتب الأقدم تأليفًا غير مشتملة على الشهادتين بينما الكتب الأحدث تأليفًا مشتملة أو العكس. ولكن وُجد أن هذه الكتب ترجع إلى قرون متفاوتة بدءًا من القرن الثالث الهجري حتى القرن الحادي عشر الهجري؛ ومن ثم لم يكن تاريخ تأليف الكتاب له تأثير في إيراد الشهادتين أو عدم إيرادها. كذلك لم يكن لمذهب المؤلف أو مكان وجوده تأثير إيراد أو عدم إيراد الشهادتين؛ لتنوعهم في المذهب والمكان.

ويرى الباحث أن إيراد أو عدم إيراد الشهادتين يرجع إلى الحالة الذهنية للمؤلف

ذاته؛ يدل على ذلك أن المؤلف الواحد قد يذكر الشهادتين في بعض مقدمات كتبه ولا يذكرهما في بعضها الآخر ؛ على سبيل المثال لم يذكر الذهبي الشهادتين في مقدمة كتابه "المُغني"، بينما ذكرهما في مقدمة كتابيه: "ميزان الاعتدال" و"الكاشف"، والأمر نفسه فعله ابن حجر ؛ فلم يذكر الشهادتين في مقدمة كتابه "طبقات المدلسين"، بينما ذكرهما في مقدمة كتابيه: "لسان الميزان"، و"تهذيب التهذيب"؛ ومن ثم ارتبط أمر إيراد الشهادتين من عدم إيرادها في المقدمة بالحالة الذهنية للمؤلف ذاته، لا بزمن، أو بمكان، أو بمجال موضوعي.

أ) شهادة التوحيد

انقسمت الشهادتان اللتان وردتا في مقدمات كتب التراجم محل الدراسة إلى: "شهادة الألوهية" و"شهادة النبوة"، أما "**شهادة الألوهية**" فيقر المؤلف في مقدمة كتابه بتوحيده لله تعالى وحده، فيقول: "**أشهد أن لا إله إلا الله**" كما فعل الهاشمي، والذهبي في كتابه "الكاشف"، وقد يستخدم المؤلف المؤكدات لذلك، فيقول "**أشهد أن لا إله إلا الله على الإطلاق**" كما فعل ابن حجر في "تهذيب التهذيب"، وقد يزيد المؤلف على ذلك فينفي الشريك لله عز وجل كما فعل السبكي؛ إذ قال "**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**".

وقد يضيف المؤلف أسماءً وصفات لله تعالى من باب الثناء، فيقول: "**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بارئ النسم**" كما فعل النووي حيث قال: " **وأشهد أن لا إله إلا الله اللطيف الكريم، الرؤوف الرحيم**"، وقد يجمع المؤلف بين الثناء على الله ووصف ذاته تبارك وتعالى، كما فعل ابن قاضي شهبة إذ قال: " **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتفرد بالعظمة والكبرياء**".

وقد يقر المؤلف بشهادته راجيًا الثواب، فيقول: " **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي قائلها من كرب يوم القيامة**" كما فعل الجماعيلي، وابن حجر في "لسان الميزان" ؛ إذ قال "**وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة أدخرها يوم العرض على الميزان**"، والقشيري حينما قال: " **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة موقن بتوحيده، مستجير بحسن تأييده** "، وكذلك فعل الذهبي في "ميزان الاعتدال"، حينما قال: " **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أدخرها لسؤال منكر ونكير**" وابن الملقن الذي يقول: " **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نافعة على الدوام**".

وقد يجمع المؤلف - بعد شهادة الألوهية - بين الثناء على الله عز وجل وبين الرجاء والرغبة في الثواب، كما فعل ابن قاضي شهبة إذ قال: " **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتفرد بالعظمة والكبرياء، شهادة موقنة خالصة، ما لقى الله بها عبد يوم الجزاء إلا أوجبت له بها الخلود في دار البقاء**".

ب) شهادة النبوة

يقر فيها المؤلف بنبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد إقراره بوحدانية الله تعالى، ولم يشذ عن ذلك سوى الجماعيلي؛ إذ ذكر شهادة التوحيد وأتبعها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "**وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي قائلها من كرب يوم القيامة، وصلى الله على المخصوص بجسيم الفضل وأعظمه محمد خير الخلق...**"، وهذا لا يعني عدم إقراره بنبوة ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يعني فقط أنه لم يذكرها صراحة وإنما ذكرها ضمنًا حينما وصف سيدنا محمدًا بكونه خير الخلق والمخصوص بعظيم الفضل.

وأما باقي مقدمات كتب التراجم الدينية الخمسة عشر - فقد ذكر مؤلفوها شهادة النبوة والرسالة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد إقرارهم بشهادة التوحيد؛ إلا أنهم اختلفوا في ذلك؛ فذكرها بعضهم مختصرة مقتصرة على خمس كلمات، كما فعل الذهبي في كتابه "الكاشف"، إذ قال "**وأشهد أن محمدًا رسول الله**"، وأضاف السبكي كلمة "سيدنا" تعظيمًا لقدر النبي محمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم أجمعين، فقال: "**وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله**"، وبعضهم أردفها بأوصاف الثناء والمديح لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ سواء اقتصر هذا المدح والثناء على بضع كلمات، كما فعل الذهبي في "ميزان الاعتدال" حينما قال: "**وأردفها بشهادة أن محمدًا عبده ورسوله خير نبي واصدق نذير**" وابن حجر في "لسان الميزان" حينما قال: "**وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المنتخب من ولد عدنان**" وفي "تهذيب التهذيب" حين قال: "**وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث إلى أهل الآفاق**"، وكما فعل ابن الملقن، حينما قال: "**وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله مصباح الظلام**"، وكذلك السيوطي حينما قال: "**وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله سيد العرب والعجم**"، وكذلك فعل النووي حينما قال: " **وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وحبيبه وخليله**".

وأطال بعضهم بعض الشيء في هذا المدح والثناء، فقال ابن حبان في "مشاهير علماء الأمصار": "**وأشهد أن محمدًا المبعوث بالحق المبين المتمسك بحبله المتين**

الملهم أهدى السبيل حتى حدا به من التضليل سيد المرسلين ورسول العالمين"، وكذلك فعل ابن حجر في "الإصابة"، فقال: "وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، أكرم به عبداً وسيداً وأعظم به حبيبًا مؤيداً، فما أزكاه أصلاً ومحتداً، وأطهره مضجعاً ومولدا، وأكرمه أصحابًا كانوا نجوم الاهتداء وأئمة الاقتدى"، وأطال أكثر من ذلك القاضي أبو يعلى، فقال: "وأشهد أن محمداً . صلى الله عليه وسلم . رسوله المصطفى ونبيه المرتضى، اختاره الله لرسالته، ومستودع أمانته، فجعله خاتم النبيين، وخير خلقه أجمعين، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ول وكره المشركون، بعثه بالكتاب المسطور في الرق المنشور، فبلغ عن الله عز وجل حقائق الرسالة، وأنقذ به أمته من الردى والضلالة، قام بما استرعاه ربه من حقه، واستحفظه تنزيله، حتى قبضه على كرامته ومنزلة أهل ولايته الذين رضي أعمالهم، حميداً رضيًا سعيداً، بما سبق من السعادة في اللوح المحفوظ قبل أن ينشئ الله نسمته".

وهكذا تراوح المديح والثناء على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بين الاختصار والتوسط والإطالة، وكلهم ما وفّى النبيَ صلى الله عليه وسلم بعض قدره، إلا أنه يجب أن يراعى أن هذه مقدمة لكتاب وليست كتابًا مستقلاً في بيان قدر النبي صلى الله عليه وسلم خير الورى.

٤) الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

المراد بالصلاة على النبي في ديباجة الكتاب أن يُصليَ المُؤلِّفُ على النبي صلى الله عليه وسلم، كأن يقول: اللهم صلِّ على محمد، ومعناه "اللهم عظم محمدًا في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دعوته وإبقاء شريعته وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وإجزال أجرك ومثوبته وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود وتقديمه على كافة المقربين في اليوم المشهود وهذه الأمور وإن كان الله تعالى قد أوجبها للنبي صلى الله عليه وسلم كان كل شيء منها ذا درجات ومراتب، فقد يجوز إذا صلى عليه واحد من أمته فاستجيب دعاؤه فيه أن يزداد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الدعاء في كل شيء مما سمينا رتبة ودرجة، ولقد كانت الصلاة مما يقصد بها قضاء حقه ويتقرب بإكثارها إلى الله تعالى، ويدل على أن قولنا: اللهم صل على محمد صلاة منا عليه لأنا لا نملك إيصال ما يعظم به أمره ويعلو به قدره إليه، وإنما ذلك بيد الله تعالى، فصح أن صلاتنا عليه الدعاء له بذلك وابتغاؤه من الله عز وجل"[1] . ومن هنا يُؤْتى بالصلاة على النبي محمد

(١) البيهقي: شعب الإيمان، مرجع سابق، ج٢ . ص٢٢١ .

صلى الله عليه وسلم بعد البسملة والحمدلة تيمنًا وتبركًا؛ ولذا ذُكرت الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أغلب مقدمات كتب التراجم محل الدراسة، كما هو موضح فيها يلي.

أ) مقدمات لم تذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

ثلاثة كتب لم تُذكر فيها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، هي: "الطبقات الكبرى"، و"المُغني"، و"الكشاف" للذهبي، أما الكتابان الأولان فلم تُذْكر فيهما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، لأن مقدمتهما قد خلت من الديباجة كلها، فلعل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في الديباجة، والديباجة سقطت من المقدمة، وأما الكتاب الثالث وهو "الكاشف"فقد أتت ديباجته مختصرة للغاية، ولعل المؤلف تعمد ذلك فاقتصر على البسملة والحمدلة والشهادتين، ولم يذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يشفع للمؤلف، وإنما كان يمكنه ذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة مختصرة كقوله ـ بعد شهادة النبوة ـ صلى الله عليه وسلم.

ب) مقدمات اكتفت بالسلام على عباد الله المصطفين

ثلاثة كتب أخرى لم تُذكر في مقدماتها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما اكتفى مؤلفوها بالسلام على عباده الذين اصطفى، وهي: "تاج التراجم"، و"الجرح والتعديل"، و"صفة الصفوة"، وثلاثتهم ذكروا تلك الصيغة "**وسلام على عباده الذين اصطفى**" التي أتت بعد حمد الله مباشرة، وقطعًا عباد الله الذين اصطفى أفضلهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ج) مقدمات ذكرت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

في غير الكتب الستة السابقة ـ ذُكرت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنها أتت متفاوتة في الصيغة والطول؛ فاستخدمت أربع عشرة مقدمة ـ تمثل ٣٣٪ ـ صيغة "**صلى الله عليه**" وهي مقدمات: "ميزان الاعتدال"، "لسان الميزان" و"تهذيب التهذيب"و"الإصابة"، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الأولياء"، و"طبقات المفسرين"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"التاريخ الصغير"، و"طبقات الصوفية"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"الطبقات السنية"، و"ترتيب المدارك"؛ بعض هذه المقدمات اكتفى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مثل: "التاريخ الصغير"، و"ترتيب المدارك" اللذين قالا في مقدمتيهما "**صلى الله عليه وسلم**"، وبعضها زاد "آل النبي محمد صلى الله عليه وسلم"، كما فعل الأسنوي في "طبقات الشافعية" بقوله:

"صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا"، والذهبي في "ميزان الاعتدال"، بقوله: "صلى الله عليه وعلى آله أولي العزم والتشهير"، وبعضهم زاد الصحب الكرام، كما فعل السبكي في "طبقات الشافعية" بقوله: "صلى الله عليه وعلى آله وصحبه"، وابن حجر في "لسان الميزان" بقوله: "صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين"، وفي "تهذيب التهذيب"بقوله: "صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه"، وابن الملقن الذي قال: "صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الكرام"، والسيوطي الذي قال: "صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه"، والقشيري الذي قال: "صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الدجى وعلى أصحابه مفاتيح الهدى وسلم تسليمًا كثيرًا"، وزاد السلمي الصلاة على جميع الأنبياء والرسل فقال: "صلى الله عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله"، وزاد النووي الصلاة على آل الأنبياء وعلى الصالحين فقال "صلى الله عليه وسلم وعلى سائر النبيين وآل كل وسائر الصالحين".

وزاد بعضهم في تسع مقدمات ـ بما يساوي ٤ , ٢١٪ ـ حرف العطف "واو" قبل صيغة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وهم: الطبراني، وابن رجب، والجماعيلي، والحسيني، وابن عبد البر، والكلاباذي ، والهاشمي، والجعدي، وابن مخلوف؛ على سبيل المثال ما ذكره الطبراني : "وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم".

وزاد ثلاثة مؤلفين ـ بما يمثل ١ , ٧٪ ـ حرف العطف "الفاء"، وهم: ابن الأثير، وابن حبان في "مشاهير علماء الأمصار"، وفي "الثقات"، فذكر ابن الأثير على سبيل المثال: "فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه".

بينما استخدم خمسة مؤلفين ـ بما يساوي ٩ , ١١٪ ـ صيغة الاسم المفرد المعرف "الصلاة" بدلاً من صيغة الفعل "صلى" واستخدموا قبله حرف العطف "الواو" وهم: ابن حجر في "طبقات المدلسين"، والطوسي، وابن الجزري، والإصبهاني، والعبادي، وعلى سبيل المثال ذكر ابن حجر في مقدمة "طبقات المدلسين": "والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله".

واستخدم أربعة مؤلفين ـ بما يمثل ٥ , ٩٪ ـ صيغة جمع المؤنث النكرة "صلوات"، وهم: القاضي أبو يعلى، وابن قاضي شهبة، والشيرازي، والإصبهاني، ومثال ذلك ما ذكره القاضي أبو يعلى: "فعليه صلوات الله وسلامه حيًا ومحمودًا وميتًا ومفقودًا".

٥) صيغة البعدية

"تأثر تأليف الكتاب التراثي بآثار الخطابة وأدب الترسُّل، فأصبح يُفْصَلُ بين

ديباجة الكتاب وباقي المقدمة بالبعدية، أي بـ"أما بعد" أو "وبعدُ"؛ وهما عبارتان مُعدَّتان للانتقال وتُؤْذِنان به إلى الغرض المقصود؛ ولذلك سُمِّيَتْ " أما بعد" بفصل الخطاب، لفصلها الكلام الثاني عن الأول[١] .

وقد أُثر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي بها في خطبه ومكاتباته؛ فقد "بوب البخاري في صحيحه في كتاب: الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء " أما بعد" ، وأورد هذا الحديث: "فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ تَجَلَّتْ الشَّمْسُ فَخَطَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللَّهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ" [٢] .

واستمر الأمر على ذلك بعد النبي صلى الله عليه وسلم؛ فـ"عن مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ نُعَيْمَ بْنَ أَبِي هِنْدٍ فَأَخْرَجَ إِلَيَّ صَحِيفَةً فَإِذَا فِيهَا مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمَا أَمَّا بَعْدُ...، وعَنْ سَعِيدِ ابْنِ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَبِي مُوسَى : أَمَّا بَعْدُ...، وعَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: كَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ...، وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ، قَالَ : حدَّثَنِي مَنْ قَرَأَ كِتَابَ عُثْمَانَ ، أَوْ مَنْ قُرِئَ عَلَيْهِ: أَمَّا بَعْدُ...، وكَتَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَى سَلْمَانَ: أَمَّا بَعْدُ. وَكَتَبَ سَلْمَانَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ أَمَّا بَعْدُ"[٣] .

و"عبارة "أما بعد" عبارة مُركَّبة من لفظيْن: "أما" والثاني: "بعد". فأما "أمَّا": فحرف شرط، و"بعد": ظرف زمان مبني على الضم، وعامله محذوف، تقديره: وأقول بعد ما تقدم من الحمد والصلاة والتسليم على نبيه الكريم. ثم "أَمَّا" تقَع في كلام العرب لتوكيد الخبر، والفاء لازمة لها؛ لتصل ما بعدها بالحرف المُلاصِق لما قبلها. وقد تُحذف "أَمَّا" لكثرة الاستعمال، ويُستغنى عنها بدخول الفاء في الجواب، ودخول الفاء: إمّا على توهم أمّا، أو على تقديرها في نظم الكلام، وقيل: إنها لإجراء الظرف مجرى الشرط، وقيل: إنها عاطفة، وقيل: زائدة. وأصل "أما بعد": مهما يكن من شيء بعدُ، فحُذِفت مهما ويكن ونابت أمَّا مَنابَهُما، وفي قولنا "وبعدُ"،قيل: الواو نائبة عن (أمَّا)، وأمَّا نائبة عن (مهما يكن)، و(بعد) ظرف مبني لتضمنه معنى الحرف وهي الإضافة لحذف المضاف إليه ونية الإضافة له، ويُحتمل أنه زماني باعتبار النطق وأنه مكاني باعتبار الكتابة، والمختار تعلقه بجواب مهما التي نابت عنها الواو بواسطة نيابتها عن إما، والتقدير مهما يكن من

(١) عباس أرحيلة: البعدية. مصدر إلكتروني.

(٢) البخاري: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. ج٢، ص٤٥٧.

(٣) ابن أبي شيبة: مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: محمد عوامة. ج٨ . ص٤٦٣ .

شيء، وتُستعمل غالبا لتفصيل ما يأتي بعدها عما أتى قبلها"[١] . ولذا فقد نهج هذا المنهج الكثير من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة، على النحو الموضح فيما يلي:

أ) مقدمات لم تستخدم البعدية

خلت اثنتا عشرة مقدمة - بما يمثل ٢٩٪ - من البعدية، وهي: "الكاشف"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"طبقات الحنابلة"، و"رجال البخاري"، و"طبقات الفقهاء"، و"التاريخ الصغير"، و"طبقات الصوفية"، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن حبان، و"الطبقات الكبرى"؛ إذ شرع بعض مؤلفي تلك الكتب في ذكر المقدمة المنهجية باستخدام لفظة أخبرنا أو حدثنا ذاكرين سند تلقى الكتاب ثم المقدمة المنهجية؛ مثلما فعل ابن شاهين، والطبراني، وابن رجب، والبخاري. أو ذكر سند تلقي الكتاب ثم الشروع في الكتاب ذاته دونما ذكر مقدمة منهجية، مثلما فعل الشعراني. بينما شرعت بعض هذه المقدمات التي لم تذكر البعدية في ذكر المقدمة المنهجية مباشرة بعد الديباجة دون استخدام أي فاصلة، مثلما فعل الشيرازي الذي قال: "**هذا كتاب مختصر في ذكر الفقهاء وأنسابهم...**" ومثلما فعل العبادي، حيث قال: "**رأيت السلف رحمة الله عليهم صرفوا همهم إلى ذكر طبقات الصحابة...**، وكما فعل القاضي بقوله: "**هذا كتاب استخرنا الله تعالى في تأليفه...**".

ب) مقدمات استخدمت البعدية

استخدمت ثلاثون مقدمة - بما يمثل ٧١٪ - البعدية للفصل بين الديباجة والمقدمة المنهجية، وهذه المقدمات هي: "طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"تراجم الحنفية"، و"الكمال"، و"ترتيب المدارك"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"طبقات الأولياء"، و"طبقات المفسرين"، و"تاج التراجم"، و"الطبقات الكبرى"، و"الإصابة"، و"أُسد الغابة"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"حلية الأولياء"، و"الاستيعاب"، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"طبقات المدلسين"، و"لسان الميزان"، و"تهذيب التهذيب"، و"شجرة النور"، و"ميزان الاعتدال"، و"الرسالة القشيرية"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"الثقات" لابن حبان، و"رجال الطوسي"، و"معرفة الصحابة"، و"صفة الصفوة"، و"الجرح والتعديل"، و"المُغني"، و"نهاية الدرايات"، و"لحظ الألحاظ".

(١) عباس أرحيلة: البعدية. مرجع سابق. مصدر إلكتروني.

ج) صيغ البعدية

اختلفت صيغة البعدية في هذه المقدمات الثلاثين، ما بين "وبعد" التي استخدمتها المقدمات العشر الأولى، وصيغة "أما بعد" التي استخدمتها باقي المقدمات الثلاثين.

غالب المقدمات - ست مقدمات - التي استخدمت صيغة البعدية "وبعد" أتبعتها باسم الإشارة هذا أو هذه مسبوقًا بحرف العطف الفاء؛ و"هذا" اسم إشارة للكتاب و"هذه" اسم إشارة لمجموعة التراجم الواردة بالكتاب فاستخدم الشعراني، والسيوطي، وابن قاضي شهبة، والجماعيلي - اسم الإشارة "هذا" ؛ على سبيل المثال ما ذكره الشعراني: "***وبعد فهذا كتاب لخصت فيه طبقات جماعة من الأولياء...*** "، بينما استخدم ابن الملقن، والحسيني "اسم الإشارة "هذه"، على سبيل المثال ما ذكره ابن الملقن: "***وبعد فهذه جملة من طبقات الأعلام الأعيان...***".

أما المقدمات التي استخدمت صيغة البعدية "أما بعد" فقد أتبع غالبها - وعددها اثنتا عشرة مقدمة - صيغة البعدية بحرف التوكيد والنسخ (إنّ) المشددة، مسبوقًا أحيانًا بحرف العطف الفاء، ومتبوعًا أحيانًا بياء الملكية (إني) ليتحدث المؤلف عن نفسه، وأحيانًا أخرى بكاف المخاطب (إنك) ليتحدث المؤلف إلى القارئ، ومثال ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم "**أما بعد فإن الله عز وجل ابتعث محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة...**"، وما ذكره الطوسي "**أما بعد فإني قد أجبت إلى ما تكرر سؤال الشيخ الفاضل فيه من جمع كتاب يشتمل على أسماء الرجال...**"، وما ذكره ابن الجوزي "**أما بعد فإنك الطالب الصادق والمريد المحقق لما نظرت في كتاب "حلية الأولياء"...**"

ومما استرعى الانتباه أن اثنين من المؤلفين استخدماها قبل الديباجة، واستخدما اسم الإشارة "هذا" أو"هذه" للفصل بين الديباجة والمقدمة المنهجية، هذان المؤلفان هما ابن الجزري الذي قال: "**أما بعد حمد الله تعالى... (وذكر الديباجة)، فهذا الكتاب غاية النهاية...**"، والمؤلف الثاني هو الهاشمي الذي قال: "أما بعد حمد الله سبحانه وتعالى... فهذه تراجم جماعة عدة...".

(٢) المقدمة المنهجية

وهي تمثل الجزء الثاني من مقدمة المؤلف، وتأتي بعد "الديباجة"، وتشتمل غالبًا على تمهيد عن موضوع الكتاب، كما توضح أهم المبررات التي دفعت المؤلف لتأليف هذا الكتاب، ومنهجه في التأليف من حيث الاختصار والتهذيب، أو الحصر والشمول، أو الإطالة والإطناب وغيرها، كما توضح مجال تغطية الكتاب وحدوده، وتذكر أشهر

المؤلفات في مجال الكتاب نفسه، مع تناولها بالنقد، وتوضيح أوجه القصور بها، ثم توضيح موقع الكتاب بين نظرائه، وتذكر المراحل التي مرّ بها المؤلف في تأليف كتابه، ونظام الترتيب الذي اتبعه المؤلف في ترتيب كتابه، ومبررات اختيار ذلك النظام دون سواه، وإعطاء أمثلة توضيحية، كما تذكر عدد المداخل التي احتواها الكتاب، وعناصر المادة المرجعية التي سيقدمها ، وتوضح مدلولات الرموز والمختصرات التي استخدمها المؤلف في متن كتابه، وتذكر المجتمع الموجه له الكتاب، ويعرض المؤلف فيها أهم المصادر والمراجع المتاحة التي اعتمد عليها، ويوضح منهجيته في تحديد المؤلفات التي تستحق أن تكون مصادر له، وكيفية التعامل معها والنقل منها والاستشهاد بها، وفيما يلي سيتم تحليل المقدمة المنهجية من خلال ستة عشر عنصرًا مرتبة ترتيبًا تنازليًا وفق نسبة ورودها بالمقدمات، وهي: المجال والحدود، ومنهج التأليف، ومبررات التأليف، والمدخل التمهيدي، والدراسات السابقة، ونظام الترتيب، وتقسيم الكتاب، والمادة المرجعية، ومصادر الكتاب، وعنوان الكتاب، ودلالات الرموز والمختصرات، والمجتمع الموجه له الكتاب، وعدد المداخل، وموقع الكتاب بين نظرائه، اسم مؤلف الكتاب، وتاريخ تأليف الكتاب.

١) المجال والحدود

جميع المقدمات محل الدراسة - باستثناء كتابي: "الجرح والتعديل"، و"معرفة الصحابة" - حرصت على ذكر مجال الكتاب وحدوده في مقدماتها؛ إلا أن هذه الكتب اختلفت فيما بينها في الألفاظ والعبارات الدالة على مجال الكتاب وحدوده؛ فعلى سبيل المثال ذكر البخاري ما نصه: "**كتاب مختصر من تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار وطبقات التابعين لهم بإحسان ومن بعدهم**"، أما ابن حبان فذكر بمقدمة "الثقات" ما نصه: "**أردت أن أملي أسامي أكثر المحدثين ومن الفقهاء من أهل الفضل والصالحين ومن سلك سبيله من الماضين**". وذكر ابن حبان أيضًا في مقدمة "مشاهير علماء الأمصار" نصًا قريبًا من ذلك، فقال : "**أردت أن أملي في "مشاهير علماء الأمصار" وأعلام فقهاء الأقطار دون الضعفاء والمتروكين**". وبهذه العبارة وضح حدود مجاله بأنه لم يذكر الضعفاء ولا المتروكين من المشاهير ". أما الطبراني فقد عبّر عن مجال "معجمه الصغير" بعبارة مختصرة حينما قال: "**كتاب فوائد مشايخي الذين كتبت عنهم بالأمصار**". وكذلك فعل الجعدي حينما قال: "**تلخيص ما أردته وتقريبه، وتخصيص ما نويته وتهذيبه من ذكر فقهاء اليمن**". وفي "حلية الأولياء" حدد الإصبهاني مجال كتابه بقوله: "**كتاب يتضمن أسامي جماعة وبعض أحاديثهم وكلامهم**

من أعلام المتحققين من المتصوفة وأئمتهم، وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم، من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم؛ ممن عرف الأدلة والحقائق، وباشر الأحوال والطرائق..." وبهذه الكلمات أوضح المجال الموضوعي، والمجال الزمني. وأما العبادي فيقول في مقدمته المنهجية "فعمدت إلى أسماء الذين عرفتهم من أصحاب الشافعي - رحمه الله - وأشياعه وأنصاره في زمانه ورواته". وذكر الطوسي ما نصه: "كتاب يشتمل على أسماء الرجال الذين رووا عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الأئمة (ع) من بعده إلى زمن القائم (ع) ثم أذكر بعد ذلك من تأخر زمانه عن الأئمة (ع) من رواة الحديث أو من عاصرهم ولم يرد عنهم". وذكر الكلاباذي مجال كتابه بقوله: "عدة من أخرج أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي مولاهم البخاري الحافظ رحمهم الله حديثهم في كتابه سماه "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه...". وذكر النووي حدود كتابه حينما ذكر في مقدمته "فأجمع إن شاء الله... كتابًا في الألفاظ الموجودة في مختصر أبي إبراهيم المزني والمهذب والتنبيه والوسيط والوجيز والروضة... فإن هذه الكتب الستة تجمع ما يحتاج إليه من اللغات، وأضم إلى ما فيها جملاً مما يحتاج إليه مما ليس فيها ليعم الانتفاع به إن شاء الله تعالى اللغات العربية والعجمية والمعربة، والإصطلاحات الشرعية والألفاظ الفقهية، وأضم إلى اللغات ما في هذه الكتب من أسماء الرجال والنساء والملائكة والجن وغيرهم ممن له ذكر في هذه الكتب برواية وغيرها".

ويتضح من مقدمة النووي أن المقدمات في أواخر القرن السابع الهجري كانت أكثر إيضاحًا لمجالات كتبها وحدودها من المقدمات السابقة؛ فقد أوضح أن كتابه يتناول الألفاظ الموجودة في كتب ستة ذكر بياناتها، كما أوضح أنه تناول أسماء الرجال والنساء والملائكة والجن، وكذلك مقدمات القرن الثامن الهجري؛ فها هو الذهبي يوضح حدود كتابه "الكاشف"بل ويوضح أيضًا التحفظات على تلك الحدود، فيقول: "هذا مختصر نافع في رجال الكتب الستة: الصحيحين والسنن الأربعة، مقتضب من تهذيب "الكمال" لشيخنا الحافظ الحجاج المزي، اقتصرت فيه على ذكر من له رواية في الكتب دون باقي تلك التواليف التي في التهذيب، ودون من ذكر للتمييز، أو كرر للتنبيه".

وكذلك فعل الأسنوي؛ إذ أوضح مجال كتابه وحدوده بشيء من التفصيل - بعد ذكر الدراسات السابقة في مجال الكتاب نفسه - بقوله: "حملني ذلك على هذا التأليف، واستوعبت فيه جميع طبقات التفليسي وهي أعم الجميع، إلا أنه فرغ منها قبل عصرنا

بسنين كثيرة كما تقدم قريبًا، وجميع من ذكره هؤلاء وغيرهم ومن تحدث بعدهم إلى عامنا، إلا أني لا أذكر غالبًا إلا من علم تقليده للشافعي وكان مشهورًا بعلم من العلوم، فأما من روى عنه شيئًا من المسائل ولم يعلم تقليده له، أو علم ذلك إلا أنه لم يمهر في علم، بل ولي قضاءً أو اشتهر بكثرة روايته أو سند عالٍ من غير تحقيق لعلم فلا أذكره".

وهو هنا يضع نهاية الحدود الزمنية لكتابه بقوله: "إلى عامنا"، ثم يوضح مقومات وشروط من يذكرهم في كتابه، فهو لن يذكر كل من عرف أنه شافعي فقط، بل لا بد أن يكون مشهورًا بتقليده للشافعي ومشهورًا بعلم من العلوم، وأما غير ذلك فلا يقع ضمن حدود كتابه.

بهذه النماذج القليلة من مقدمات كتب التراجم التي أُلّفت من القرن الثالث إلى القرن الثامن الهجري اتضح كيف كان مؤلفو كتب التراجم يعبرون عن مجالات كتبهم وحدودها بعبارات واضحة؛ مما يدل على مدى وضوح ذلك العنصر المنهجي في أذهانهم ومعرفتهم بمدى أهميته للقارئ.

٢) منهج المؤلف

حرص أكثر من ٦٤٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة على ذكر منهجيتهم في تأليف كتبهم؛ من حيث التهذيب والإطالة والإطناب، وكذلك منهجيتهم حيال الدراسات السابقة في مجال كتبهم والتعامل معها، وكيفية النقل من المراجع، وتحديد نوعية المراجع والمصادر الجديرة بالنقل منها، ومراحل التأليف وغير ذلك. نجد ذلك في مقدمات: "التاريخ الصغير"، و"الثقات" لابن حبان ، و"الاستيعاب"، و"طبقات الفقهاء"، و"ترتيب المدارك"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"صفة الصفوة"، و"الكمال"، و"أُسد الغابة"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"الكاشف"، و"المُغني"، و"ميزان الاعتدال"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"نهاية الدرايات"، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"الإصابة"، و"تهذيب التهذيب"، و"طبقات المدلسين"، و"لسان الميزان"، و"لحظ الألحاظ"، و"تاج التراجم"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور".

فعلى سبيل المثال نجد البخاري يوضح منهجيته من حيث الاختصار والإطناب، فيقول: "**هذا كتاب مختصر من تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار وطبقات التابعين لهم بإحسان ومن بعدهم**"، فيوضح أنه اتبع في تأليف كتابه منهجية الاختصار. وأشار ابن حبان في مقدمة كتابه "الثقات" إلى حذف الأسانيد والاختصار

والهدف من اتباع تلك المنهجية، وذلك بقوله: "**بحذف الأسانيد والإكثار، ولزوم سلوك الاختصار ليسهل على الفقهاء حفظها ولا يصعب على الحفاظ وعيها**". وقريبًا من ذلك ما ذكره الشيرازي من اتباع منهجية الاختصار بقوله: "**هذا كتاب مختصر في ذكر الفقهاء...**". كما أوضح القاضي عياض مراحل تأليفه لكتابه بقوله: "**ولم أزل منذ سمت همتي لمعرفة هذا الفن، وتحركت نيتي للاطلاع عليه، أستقرئ سبل سالكه، وأفحص عن وجوه مداركه، وأقيد أثناء مطالعتي شوارده، وأجود مدى بحثي جوائده، إلى أن اجتمع لي من ذلك بعد طول المباحثة الشديدة والعناية التامة والمطالعة المتواترة ما وجدته بُغية وغُنية وبُسط لي في تحريره أملاً ونية...**". أما ابن الأثير فقد ذكر في مقدمته العديد من الدراسات السابقة في مجال كتابه، ثم أوضح منهجه حيال تلك الكتب وحيال كتابه فقال: "**فرأيت أن أجمع بين هذه الكتب وأضيف إليها ما شذ عنها مما استدركه أبو علي الغساني على أبي عمر بن عبد البر، وكذلك أيضًا ما استدركه عليه آخرون وغير ما ذكرنا، فلا نطول بتعداد أسمائهم هاهنا، ورأيت ابن منده وأبا نعيم وأبا موسى عندهم أسماء ليست عند ابن عبد البر، وعند ابن عبد البر أسماء ليست عندهم، فعزمت أن أجمع بين كتبهم الأربعة**". وأوضح النووي منهج تأليفه بشكل أكثر عمقًا حينما قال: "**وأضبط إن شاء الله تعالى من أسماء الأشخاص واللغات والمواضع كل ما يحتاج إلى ضبط بتقييده بالحركات والتخفيف والتشديد، وأن هذا الحرف بالعين المهملة أو العين المعجمة وما أشبهه، وأنقل كل ذلك إن شاء الله تعالى محققاً مهذبًا من مظانه المعتمدة وكتب أهل التخصيص، فما كان مشهوراً لا أضيفه غالباً إلى قائليه لكثرتهم وعدم الحاجة إليه، وما كان غريباً إلى قائليه أو ناقله، وما كان من الأسماء وبيان أحوال أصحابها نقلته من كتب الأئمة الحفاظ والأعلام المشهورين بالإمامة في ذلك**". بهذه الكلمات القليلة أوضح النووي ما سيقوم به في كتابه من:

أ- ضبط أسماء الأشخاص والكلمات بالحركات، وبيان كون ذلك الحرف مهملاً أم معجمًا.

ب- الالتزام بالتهذيب والاختصار عند النقل من المصادر.

ج- إسناد القول إلى قائليه إذا كان غريبًا، أما إذا كان القول مشهورًا فلا حاجة لإسناده إلى قائليه.

د- الاعتماد في النقل على كتب الأئمة الحفاظ الأعلام المشهورين بالإمامة في ذلك والمعتمدين عند جميع العلماء، وهو بذلك يوضح كنه المراجع والمصادر الجديرة

بالاعتماد عليها في البحث العلمي، وهو بذلك - أيضًا - يشير إلى أنه لن ينقل من كل كتاب تناول موضوع بحثه.

وأما الذهبي فيوضح في كتابه "المُغني"منهجيته في تأليف كتابه من حيث الاختصار والتطويل، ويوضح مبررات اختيار ذلك المنهج، فيقول: "هذبته وقربته وبالغت في اختصاره تيسيرًا على طلبة العلم المعتنين بالحديث في معرفة الضعفاء". بينما يوضح المؤلف نفسه في كتابه الآخر "ميزان الاعتدال" تفضيله للبسط والتطويل؛ حيث يقول: "فهذا كتاب جليل مبسوط في إيضاح نقلة العلم النبوي وحملة الآثار". ومثله فعل ابن حجر حينما أوضح اتباعه للشمول والتفصيل في كتابه"الإصابة"، فيقول :"فجمعت كتابًا كبيرًا في ذلك ميزت فيه الصحابة عن غيرهم". وهذا هو الغزي يوضح منهجيته في النقل من المصادر والمراجع بقوله: "ولا أنقل شيئًا إلا بعد أن يشهد له العقل والنقل وغلبة الظن بالصحة".

وهذه المنهجية التي ظهرت منذ القرن الثالث الهجري، وصلت إلى درجة نضج واضحة في القرن السابع الهجري وما تلاه، نتيجة لتراكم العلم وزيادة الخبرات، هذا الوضوح ظهر في مدى حرصهم على ذكر منهجيتهم ومعالجتهم لمادة كتبهم في مقدمات تلك الكتب.

٣) مبررات التأليف

اختلفت المبررات والأهداف التي من أجلها صنف المؤلف كتابه، وقد حرص المؤلفون على ذكر هذه المبررات في مقدمات كتبهم ليعلم القارئ لماذا قام المؤلف بوضع هذا الكتاب، ولقد كان الكثير من مؤلفي كتب التراجم العربية مدركين لأهمية ذكر مبررات تأليفهم، مما جعل ٥٧٪ ممن تناولتهم الدراسة يذكرون تلك المبررات في مقدمات كتبهم، وهذا ما فعله مؤلفو: الجرح والتعديل، و"الثقات" لابن حبان ، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"طبقات الصوفية"، و"معرفة الصحابة"، و"رجال الطوسي"، و"الاستيعاب"، و"الرسالة القشيرية"، و"ترتيب المدارك"، و"صفة الصفوة"، و"أُسد الغابة"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"طبقات الأولياء"، و"نهاية الدرايات"، و"الإصابة"، و"تهذيب التهذيب"، و"لسان الميزان"، و"تاج التراجم"، و"طبقات المفسرين"، و"الطبقات الكبرى"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور".

وبالطبع اختلفت تلك المبررات من مؤلف لآخر؛ فقد ذكر ابن أبي حاتم أن مبررات

تأليف كتابه هو التمييز بين العدول والمجروحين، فيقول: "وجب أن نميز بين عدول النقلة والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والثبت والإتقان منهم وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة"، وينتقل ابن أبي حاتم من هذا الهدف العام إلى هدف أكثر خصوصية، وهو تبيين طبقات ومقادير ودرجات هؤلاء وهؤلاء، فيقول: "ثم احتيج إلى تبين طبقاتهم ومقادير حالاتهم وتباين درجاتهم ليعرف من كان منهم"، ثم يكمل قائلاً "ويعرف من كان منهم عدلاً في نفسه من أهل الثبت في الحديث... ومنهم الصدوق والورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط...".

كذلك يذكر ابن حبان بوضوح مبررات تأليف كتابه "الثقات"، فيقول: "فلما رأيت معرفة السنن من أعظم أركان الدين، وأن حفظها يجب على أكثر المسلمين، وأنه لا سبيل إلى معرفة السقيم من الصحيح، ولا صحة إخراج الدليل من الصريح إلا بمعرفة ضعفاء المحدثين كيفية ما كانوا عليه من الحالات أردت أن أملي أسامي أكثر المحدثين ومن الفقهاء من أهل الفضل والصالحين ومن سلك سبيله من الماضين". وقدم ابن حبان بين يدي كتابه "الثقات" بمقدمة مختصرة توضح أهمية كتابه، وتستحث القارئ على الاهتمام به دراسة وفهمًا. وأما الإصبهاني فيذكر المبرر العام لتأليف كتابه "معرفة الصحابة" في جملة واحدة، فيقول: "الوقوف على معرفة صفوة الصحابة والمشهورين من حوت أساميهم وأذكارهم ديوان الرواة والمحدثين" ثم يخصص هذا الهدف العام ويعمّقه أكثر بقوله: "معرفة مراتبهم من السابقة والهجرة والمؤازرة والنصرة". ويذكر القاضي عياض مبررات تأليفه لكتابه بنفس درجة وضوح سابقيه، فيذكر أن السبب في ذلك هو عدم وجود كتاب جامع لأعيان المالكية، وكذلك وجود الرغبة القوية من قبل العلماء والطلاب لوجود هذا الكتاب، بقوله: "ولم ألق أحداً ممن يُعتني برأيه ويُلتفت إلى حسن رأيه ممن وقف على نبذ من أمره، وانتهى إليه رش من ذكره، إلا قلقًا إلى تمامه، شديد الغطس إلى كماله، محرضًا على صرف العناية إلى تحريره وتهذيبه، راغبًا في تقريب الفائدة بنظمه وتبويبه"، كما يقول القاضي عياض - موضحًا مبررات تأليفه لكتابه - "فلما تكررت رغبات الأصحاب - لإمضاء ما كانت النية اعتقدته، وتبييض ما غدت الهمة قد سودته: من كتاب حاوٍ لأسماء أعيان المالكية وأعلامهم...إذ هو فنٌ لم يتقدم فيه تأليف جامع، ولا اختص به تصنيف رائع...مع شدة حاجة المجتهد والمقلد إليه".

ومن مؤلفات التراجم في القرن السابع الهجري كتاب "أُسد الغابة" الذي تمثلت

مبررات تأليفه في وجود اختلاف بين الكثير من العلماء الذي جمعوا أسماء الصحابة في النسب والصحبة والمشاهد التي شهدها، كما كانت مبرراته ـ أيضًا ـ رغبة أعيان المحدثين في جمع كتاب في الصحابة يستقصي أسماء الصحابة، وتبيين الحق فيما اختلف فيه المؤلفون السابقون، فذكر هذه المبررات بقوله: " **فلما دخلتها (أي بيت المقدس) اجتمع جماعة من أعيان المحدثين وممن يعتني بالحفظ والإتقان، فكان مما قالوه: إننا نرى كثيراً من العلماء الذين جمعوا أسماء الصحابة يختلفون في النسب والصحبة والمشاهد التي شهدها الصاحب، إلى غير ذلك من أحوال الشخص، ولا نعرف الحق فيه، وحثوا عزمي على جمع كتاب لهم في أسماء الصحابة رضي الله عنهم أستقصي فيه ما وصل إليّ من أسمائهم وأُبين فيه الحق فيما اختلفوا فيه... واستدراك ما فاتهم**". وهذه المبررات تشابهت إلى حدٍ كبير مع مبررات القاضي عياض وليس هذا ناتجاً عن تقليد مؤلفي كتب التراجم بعضهم البعض في إعداد المقدمة، وإنما نتج عن التفاعل الحقيقي للمؤلفين مع رغبات مجتمع القراء والباحثين.

أما هدف الأسنوي ومبررات تأليفه لكتابه فقد تمثل في إعداد كتاب مستقل جامع لـ"طبقات الشافعية"، فذكر ذلك في مقدمته: "**ولما ألفت كتابي الكبير المسمى "المهمات في شرح الرافعي" و"الروضة" المشتمل على عشرين نوعًا، ومنّ الله بإكماله، وكان من جملة أنواع الكلام على ما وقع في الكتابين من أصحاب الشافعي، وحصل ترتيبها فوقعت من الفضلاء موقعًا كبيراً، لسهولة الإخراج، وتشوقت النفس إلى طبقات مستقلة، جامعة لهذه الأسماء وغيرها على هذا الأسلوب**". ويتضح من هذا الكلام مدى حس المؤلف بردود أفعال قرائه تجاه الكتب التي ألفها من قبل؛ ككتاب "المهمات في شرح الرافعي" وكتاب "الروضة" واستحسان هؤلاء القراء لنمط تأليف الكتابين؛ مما حفزه على تأليف كتاب مستقل وجامع لـ"طبقات الشافعية" على نمط هذين الكتابين.

وفي أوائل القرن التاسع الهجري اختصر ابن الملقن مبررات تأليف كتابه، قائلاً: "**جمعتهم لأهتدي بمآثرهم، وأقتفي بآثارهم، رجاء أن أنظم في سلكهم، فالمرء مع من أحب، وأحيا بذكرهم، ويزول عني النصب**". يُلاحظ أن هذا الهدف هو هدف عملي، وهو الاهتداء بمآثر الأشخاص الذين جمعهم في كتابه، واقتفاء آثارهم وزوال النصب عنهم. وإن كان المؤلف قد حدد هدفه بأشياء تعود عليه، إلا أنها أشياء يعود على القارئ مثلها. وأما هدف ابن حجر ومبرره الذي دفعه لتأليف كتابه "الإصابة" فقد كان: "**كثرة سؤال جماعة من الإخوان في تبيضه، أي تبييض كتاب شامل لتمييز صحابة النبي صلى الله عليه وسلم**. بينما كان هدف السيوطي من تأليف كتابه هو عدم وجود كتاب أُفرد لبيان

"طبقات المفسرين"، فذكر في مقدمته ما يلي: "فهذا المجموع فيه "طبقات المفسرين"؛ إذ لم أجد من اعتنى بإفرادهم، كما اعتني بإفراد المحدثين والفقهاء والنحاة وغيرهم".

وفي أواخر القرن العاشر الهجري استخدم الشعراني كلمات واضحة تدل على هدفه من تأليف ذلك الكتاب فقال: "ومقصودي بتأليفه فقه طريق القوم في التصوف من آداب المقامات والأحوال لا غير". باستخدام كلمات مثل: "ومقصودي بتأليفه"، وكلمة "لا غير" زيادة في جعل هدفه أكثر وضوحًا، وفي ذلك تطور في أسلوب إيضاح المؤلفين لأهدافهم ومبرراتهم من تأليف كتبهم.

وأما في القرن الحادي عشر فزادت المبررات دقة وأصبحت الأهداف أكثر عمقًا، فهذا هو الغزي، وابن مخلوف جعلا هدفهما استكمال الحدود الزمنية للدراسات السابقة في مجال كتابيهما؛ فذكر الغزي: "وقد صُنف في مناقبهم وفضائلهم وطبقاتهم كتب كثيرة، ومجلدات كبيرة، غير أن تقادم الزمان أخلق جدتها، وأنقص عدتها". ويقول ابن مخلوف بعدما ذكر دراسات سابقة في تراجم المالكية "وجاء بعده إلى هذا العهد ائمة لهم في العلم منزلة ظاهرة، ومزايا فاخرة...، ولم نجد من تعرض لجمعهم بحال، ونسج فضائلهم على ذلك المنوال... وبعد ذلك انشرح صدري لتأليف تذييل مفيد مبين، وتكميل مستحسن معين...". فبعد ما كانت مبررات تأليف الكتب هو الجمع والحصر والشمول، أصبحت المبررات أكثر ضيقًا بل أكثر عمقًا، وهو استكمال الحدود الزمنية لدراسات سابقة في المجال نفسه، كما أصبحت مبررات وأهداف التأليف أكثر وضوحًا في أذهان مؤلفي كتب التراجم، ومن ثم أصبحت أكثر إيضاحًا في مقدمات كتبهم.

ومن خلال دراسة مبررات تأليف كتب التراجم اتضح ما يلي:

١) تنوع أهداف ومبررات تأليف تلك الكتب، وهذه الأهداف هي:

أ) الاستجابة لرغبات وإلحاح المجتمع الموجه له الكتاب؛ ومثال ذلك: القاضي عياض، وابن الأثير، وابن حجر في كتابه "الإصابة"، وغيرهم.

ب) استشعار المؤلف بنقص أو قلة أو ربما عدم وجود إنتاج فكري في المجال؛ مثل: القاضي عياض، وابن الأثير، والسيوطي، وغيرهم.

ج) إعداد كتاب يختلف في نمط إعداده وترتيبه عن الكتب في المجال نفسه، كمبررات الأسنوي.

د) الرغبة في تغيير سلوك القارئ، كالذي نجده عند ابن الملقن، والشعراني، وغيرهم.

هـ) استكمال الحدود الزمنية لدراسات سابقة في المجال نفسه، وهي مبررات تأليف "الطبقات السنية"، و"شجرة النور"، وغيرهما.

٢) تطور أهداف ومبررات تأليف كتب التراجم على مدار القرون؛ من مبررات عامة إلى مبررات أكثر خصوصية وأكثر دقة، وأكثر وضوحًا، بالشكل الذي تم إيضاحه فيما سبق.

كما لوحظ - أيضًا - من خلال دراسة ذلك العنصر ما يلي:

أ) أن تأليف كتب التراجم كان لحل مشكلة بحثية قائمة.

ب) تفاعل مؤلفي كتب التراجم مع مجتمع القراء والباحثين، والاستجابة لرغباتهم.

ج) أن المبررات كانت واضحة في أذهانهم؛ مما ترتب عليه إنجاز مشروعهم البحثي الذي لبى هذه المبررات، وحقق تلك الأهداف.

د) دراسة رد فعل المجتمع الموجه له الكتاب، والاستجابة لها في الكتب التالية.

٤) المدخل التمهيدي

انقسمت مقدمات كتب التراجم - محل الدراسة - إلى قسمين متساويين إلى حد ما في ذكر وعدم ذكر مدخل تمهيدي لمقدماتهم المنهجية؛ كما هو موضح فيما يلي:

أ) مقدمات لم تبدأ بمدخل تمهيدي

وهي ثلاث وعشرون مقدمة - بما يمثل ٤٥,٧٪ من المقدمات محل الدراسة، هذه المقدمات هي: "طبقات الحنابلة"، و"الكاشف"، و"حلية الأولياء"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"الكمال"، و"طبقات الفقهاء الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"طبقات المدلسين"، و"ميزان الاعتدال"، و"المُغني"، و"نهاية الدرايات"، و"لحظ الألحاظ"، و "تاج التراجم"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"طبقات الأولياء"، و"الطبقات الكبرى"، "التاريخ الصغير"، "الذيل على طبقات الحنابلة"، و"المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن حبان، و"رجال البخاري"، و"طبقات الفقهاء"، و"طبقات المفسرين"، و"رجال الطوسي".

هذه المقدمات السابقة لم تشتمل على مدخل تمهيدي لموضوع الكتاب؛ لأن ست عشرة مقدمة منها بدأت بإيضاح المجال الموضوعي للكتاب، مثلما فعل ابن حجر في "طبقات المدلسين"، وابن الملقن، والجماعيلي، والسيوطي، وابن حبان، والشيرازي، والجعدي، والإصبهاني في "حلية الأولياء"، والطوسي، وابن قاضي شهبة في "طبقات

الشافعية"، والحسيني، وابن رجب، والشعراني، والهاشمي، والذهبي في "الكاشف"، والقاضي أبو يعلى.

وأما مقدمات "المُغني"، "وميزان الاعتدال"، و"نهاية الدرايات"، و"التاريخ الصغير" - فقد بدأت بإيضاح منهج المؤلف في تأليف كتابه، بينما بدأ الطبراني، والكلاباذي بذكر عنوانى كتابيهما، وأما ابن قطلوبغا فقد بدأ مقدمته بذكر دوافع تأليف الكتاب. وبهذا يتضح كيف بدأت المقدمات التي لم تبدأ مقدمتها المنهجية بمدخل تمهيدي.

ب) مقدمات بدأت بمدخل تمهيدي

بدأ تسعة عشر كتابًا من كتب التراجم محل الدراسة - بما يمثل ٤٥٪ - مقدماتها المنهجية بمدخل تمهيدي، هذه الكتب هي: "ترتيب المدارك"، و"الطبقات السنية"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"طبقات فقهاء الشافعية"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"أُسد الغابة"، و"الإصابة"، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"الاستيعاب"، و"لسان الميزان"، و"تهذيب التهذيب"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"معرفة الصحابة"، و"الجرح والتعديل"، و"صفة الصفوة"، و"طبقات الصوفية"، و"الرسالة القشيرية"، و"شجرة النور". تمثل المدخل التمهيدي في بيان شرف علم الحديث وأهمية تمييز الصحابة كما فعل ابن حجر في "الإصابة"، وفي بيان أهمية العلم الشرعي وأهمية معرفة أحوال الصحابة، كما فعل ابن الأثير. أما السبكي فقد تمثل مدخله التمهيدي في الشرح التفصيلي لحديث "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد أقطع" وبيان الطرق والروايات المختلفة لذلك الحديث، وذكر الأسنوي فضل الشافعي ورجال مذهبه كمدخل تمهيدي لمقدمته المنهجية لكتابه. أما الغزي فذكر أهمية سلوك طريقة السلف. وأما النووي فقد أوضح أهمية لغة العرب ومقامها الأسنى وكونها يُعرف بها كتاب رب العالمين وسنة خير الأولين والآخرين، وأهمية الاعتناء بها ألفاظًا وأسماءً، وهكذا، فقد كان لكل مؤلف مدخله المنطقي التمهيدي لكتابه؛ سواء أفرد لذلك فقرة مستقلة، أو ألمح إليها في صيغ الحمد والثناء.

مما سبق يتضح أن ثلاثًا وعشرين مقدمة منهجية لم تبدأ بمدخل تمهيدي، وهذا ليس معناه عدم إشارة مؤلفي المقدمات الثلاثة والعشرين إلى موضوع الكتاب؛ فقد استخدم الكثير منهم العديد من الألفاظ والجمل الموحية بموضوع الكتاب، وخاصة في "صيغ الحمد والثناء على الله"؛ على سبيل المثال ما ذكره الذهبي في "ميزان الاعتدال" ضمن حمده لله ما نصه: "وجعل منهم أئمةً ونقادًا يدققون في النقير والقطمير

ويتبصرون في ضبط آثار نبيهم أتم التبصر... ويتكلمون في مراتب الرجال وتقرير أحوالهم..."، وفي ذلك إشارة إلى أن كتابه هو كتاب تراجم يتحدث فيه عن الرجال، بل هو ضمن فئة كتب "الجرح والتعديل". كذلك ما ذكره الإصبهاني في "حلية الأولياء": "**...وابهجَ المنهجَ السادة من المحققين والذين جعلهم الله خلفاء الأنبياء وعرفاء الأصفياء المقربين إلى الرتب الرفيعة والمنزهين عن النسب الوضيعة والمقومين بالمتابعة والتدقيق معرفة تعقب لمعرفتهم موافقة...**"، وفي ذلك إشارة إلى من ترجم لهم الإصبهاني في كتابه، وهناك الكثير من الأمثلة للمؤلفين الذين أشاروا لموضوع كتابهم ضمن صيغ الحمد في مقدماتهم.

٥) الدراسات السابقة

في هذه الجزئية يتم إلقاء الضوء على منهجية ذِكر مؤلفي كتب التراجم للدراسات السابقة في مقدمات كتبهم، وكيف كان أسلوب ترتيبهم لتلك الدراسات، والبيانات الببليوجرافية التي يذكرونها للدراسات السابقة، وكيفية تطور ذلك.

و"المقصود بالدراسات السابقة تلك البحوث العلمية التي أُعِدت من قبل في نفس نقطة البحث، والحكمة من استعراض الدراسات السابقة هو تحليل نقاط الالتقاء ونقاط الافتراق بين البحث الحالي ونظرائه في نفس الموضوع، ومن ثم مبررات بحث نفس الموضوع مرة أخرى والجهد الجديد في نفس الموضوع"[١]، وكذلك تأكيد جدة وأهمية البحث الذي سيقوم به، فضلاً عن بيان أوجه العلاقة وأوجه الإفادة منها"[٢]، "فيقوم الباحث هنا بعرض الدراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع بحثه وتلخيصها ونقدها، للاستئناس بما قام به الباحثون الآخرون ومعرفة الجوانب التي اهتموا بها"[٣] .

ولهذه الأهمية حرص مؤلفو كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ منذ القرن الخامس الهجري على ذكر أهم الدراسات السابقة ذات العلاقة بموضوع كتابهم؛ إذ حرص ٤٢,٨٪ من مؤلفي كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ على ذكرها. هذه الكتب هي: "رجال الطوسي"، و"ترتيب المدارك"، و"صفة الصفوة"، و"الكمال"، و"أُسد الغابة"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"المُغني"، و"ميزان الاعتدال"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"نهاية الدرايات"، و"الإصابة"، و"تهذيب التهذيب"، و"طبقات

(١) شعبان عبد العزيز خليفة: المحاورات في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات. ص١١٠ .

(٢) محمد فتحي عبد الهادي: البحث ومناهجه في علم المكتبات والمعلومات. ص ٨٨ .

(٣) عبد المجيد بوعزة: الدليل العلمي للطالب العربي في الدراسات العليا في علم المكتبات والمعلومات لإعداد مقترح بحث لرسالة الجامعة. ص١٣ .

المدلسين"، و"لسان الميزان"، و"لحظ الألحاظ"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور".

على سبيل المثال ما ذكره الطوسي: "**ولم أجد لأصحابه كتابًا جامعًا في هذا المعنى إلا مختصرات، قد ذكر كل إنسان منها طرفًا، إلا ما ذكره ابن عقدة من رجال الصادق، فإنه قد بلغ الغاية في ذلك، ولم يذكر رجال باقي الأئمة، وأنا أذكر ما ذكره، وأورد من بعد ذلك من لم يذكره**". يُلاحَظ من ذلك اكتفاء الطوسي بذكر دراسة سابقة واحدة، وهي فعلاً في مجال الكتاب نفسه، واكتفى عند ذكر تلك الدراسة باسم مؤلفها لاشتهارها بذلك، كما يُلاحَظ ـ أيضًا ـ توضيح الطوسي لنقاط الالتقاء ونقاط الافتراق بين عمله وعمل ابن عقدة، ولم يكتفِ بذلك بل ذكر ـ أيضًا ـ أوجه قصور هذه الدراسة ومبررات التأليف في الموضوع نفسه وأوضح الجهد الجديد الذي سيبذله، حينما قال: "ولم يذكر (يعني ابن عقده) **رجال باقي الأئمة، وأنا أذكر ما ذكره، وأورد من بعد ذلك من لم يذكره**"، يُلاحَظ كذلك استخدام الأسلوب الراقي في التعبير عن أوجه قصور الدراسة السابقة دون نقد لاذع أو تجريح لمؤلفها، بل مدح تلك الدراسة ومدح مؤلفها، بقوله: "**فإنه قد بلغ الغاية في ذلك**". هذا النموذج الناضج لعرض الدراسات السابقة في مقدمات كتب التراجم ينتمي إلى حقبة مبكرة في تاريخ الحضارة البشرية، ينتمي إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أي منذ ألف سنة تقريبًا.

في النموذج السابق اكتفى المؤلف بذكر دراسة سابقة واحدة، أما القاضي عياض فقد ذكر ثلاث دراسات سابقة بقوله: "**إذ هو فن لم يتقدم فيه تأليف جامع، ولا اختص به تصنيف رائع، يوصل الطالب إلى الغرض، ويقف بالراغب على البُغية، مع شدة حاجة المجتهد والمقلد إليه، وضرورة الفقيه والمتفقه إلى ما ينطوي عليه، إلا ما جمعه عبدالله بن محمد بن أبي دُليم القرطبي من ذلك، ومحمد بن حارس القروي، مع تقدم زمنهما، وما اقتضبه الشيخ أبو إسحق الفيروزآبادي في موضوع ذكرهم من مختصره؛ وكل الكتب فما شفت غليلاً، ولا تضمنت من الكثير إلا قليلاً، على أن ابن أبي دُليم اتسع اتساعًا حسنًا، فيمن ذكره من المغاربة، من أتباع رواة مالك من المصريين والأندلسيين وطائفة من القرويين، واقتصر على ذكر طبقاتهم دون شيء من أخبارهم وبيان أحوالهم، ولم يُجْرِ لأحد من الحجازيين والمشرقيين ذكرًا على جلالة مكانتهم، وكثرة أعلامهم،...، فاستخرت الله على ذلك واستعنته جل اسمه، لتوطئة هذه المسالك، وجمعت قراطيس فنظمتها عما استودعتها...، وأبرزت تأليفًا مفردًا في مضمونه بالغاً فيما قُصِر عليه من أنواع هذا العلم وفنونه**".

١- ذكر أهمية تناول ذلك الموضوع لعدم وجود تأليف جامع في مجاله.

٢- ذكره لأكثر من دراسة سابقة.

٣- الاكتفاء عند الإشارة إلى الدراسات السابقة بذكر أسماء مؤلفيها لشهرتها بذلك.

٤- ذكر مبررات تناول ذلك الموضوع على الرغم من وجود دراسات فيه، لأن الحدود الزمنية لبعض تلك الدراسات قديمة، ومن ثم بروز الحاجة إلى تغطية الحدود الزمنية التي لم تغطها تلك الدراسات، اتضح ذلك من قول القاضي عياض " **إلا ما جمعه عبد الله بن محمد بن أبي دُليم القرطبي من ذلك، ومحمد بن حارس القروي، مع تقدم زمنهما**"، من تلك المبررات - أيضًا - منهج الاختصار والاقتضاب الذي اتبعه الفيروزآبادي.

٥- التعليق الإجمالي على تلك الدراسات بعد التعليق عليها تفصيلاً، فقال:" **وكل الكتب فما شفت غليلاً، ولا تضمنت من الكثير إلا قليلاً**".

٦- التعليق على دراسة عبد الله بن محمد بن أبي دُليم القرطبي وبيان ما فيها من قصور، وهو:

أ - الاقتصار على ذكر طبقات المالكية من المصريين والأندلسيين وبعض القرويين.

ب - عدم ذكره لطبقات المالكية من الحجازيين والمشرقيين، على الرغم من كثرتهم وعلو مكانتهم.

ج - عدم بيان أحوال هؤلاء الأشخاص وعدم ذكر أخبارهم.

بهذه النقاط الستة حقق القاضي عياض الهدف العام من ذكر الدراسات السابقة، وهو إيضاح مبررات بحث الموضوع نفسه مرة أخرى، وإيضاح الجهد الجديد الذي سيضيفه هو، كما أنه حقق الأهداف التفصيلية من ذكر الدراسات السابقة، والتي منها: "دراسة تاريخ مشكلة البحث، والاستئناس بالخلفية النظرية لموضوع الدراسة، وتجنب التكرار غير المقصود، وغير ذلك"[1] .

وذكر الذهبي في كتابه "المُغني" خمس عشرة دراسة سابقة في موضوع كتابه، مع بيان ما أضافه في كتابه غير مُتَنَاول في تلك الكتب السابقة، فقال: "وقد جمعت في

(١) عبد المجيد بوعزة: الدليل العلمي للطالب العربي في الدراسات العليا. مرجع سابق. ص١٢ .

كتابي هذا أمما لا يحصون، فهو مغنٍ عن مطالعة كتب كثيرة في الضعفاء، فإني أدخلت فيه إلا من ذهلت عنه الضعفاء لابن معين وللبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم والنسائي وابن خزيمة والعقيلي وابن عدي وابن حبان والدارقطني والدولابي والحاكمين والخطيب وابن الجوزي، وزدت على هؤلاء ملتقطات من أماكن متفرقة وأشرت إلى حال الرجل"

وفي كتابه الآخر "ميزان الاعتدال" نجده قد أعد شيئًا قريبًا من المراجعة العلمية عند عرضه للدراسات السابقة في مقدمته، فنجده قد أشار إلى أول من ألَّف في هذا المجال بقوله: **"فأول من جمع كلامه في ذلك (أي: الجرح والتعديل) الإمام الذي قال فيه أحمد بن حنبل: ما رأيت بعيني مثل يحيى ابن سعيد القطان"** ونجده كذلك يعرض هذه الدراسات السابقة بنظام محدد وهو نظام الطبقات، فنجده يقول: **"وتكلم في ذلك بعده تلامذته يحيى بن معين وعلي ابن المديني، وأحمد بن حنبل، وعمرو بن أبي الفلاس، وأبو خيثمة، وتلامذتهم: كأبي زرعة، وأبي حاتم، والبخاري، ومسلم، وأبي إسحاق، والجوزجاني السعدي، وخلق من بعدهم، مثل: النسائي، وابن خزيمة، والترمذي، والدولابي، والعقيلي"**. ثم إنه لا يسرد تلك الدراسات سردًا وإنما يعلق على بعضها بمثل قوله: **"ولأبي حاتم ابن حبان كتاب كبير عندي في ذلك، ولأبي أحمد بن عدي كتاب الكامل، هو أكمل الكتب وأجلّها في ذلك"**، كما أن أمانته العلمية وصدقه يتجلى في مثل قوله: **"وقد ذيل ابن طاهر المقدسي على الكامل لابن عدي *بكتاب لم أره*"**.

وأما الأسنوي فذكر الكثير من الدراسات السابقة في مجال كتابه وعلق عليها، بمثل قوله: **"كطبقات العبادي والشيخ أبي إسحاق وابن الصلاح، وهي أعم مما قبلها، إلا أنه أسقط أكثر المشهورين من الأئمة كالمزي..."** ومثل قوله: "طبقات التفليسي وهي أعم الجميع"، ثم ذكر من المبررات ما يكفي لإنجاز كتابه على الرغم من وجود العديد من الدراسات السابقة؛ من ذلك **"طبقات التفليسي وهي أعم الجميع، إلا أنه فرغ منها قبل عصرنا بسنين كثيرة"** والمبرر هنا هو توقف بعض الدراسات السابقة عند حد زمني معين يريد المؤلف استكماله.

ويشير ابن الجزري إلى ما سيضيفه كتابه على الرغم من وجود دراسات سابقة في مجاله نفسه فيقول: **"وأتيت فيه (أي: في هذا الكتاب) على جميع ما في كتابي الحافظين أبي عمرو الداني وأبي عبد الله الذهبي - رحمهما الله -، وزدت عليهما نحو الضعف"**

وقسَّم ابن حجر في مقدمة كتابه "الإصابة" الدراسات السابقة في مجال كتابه وفق نظام الطبقات، بدأها بأول من صنَّف في ذلك المجال، فقال: "**جمع في ذلك جمع من الحفاظ تصانيف بحسب ما وصل إليه اطلاع كل منهم؛ فأول من عرفته صنَّف في ذلك أبو عبد الله البخاري...**" وعبارة "**بحسب ما وصل إليه اطلاع كل منهم**" لا تعني أبدًا الانتقاص من شأنهم، بل على العكس من ذلك، فالمؤلف هنا يلتمس الأعذار للمؤلفين قبله إذا فاتهم شيء من الصحابة.

وتميز ابن حجر بذكر عناوين بعض الدراسات مضافة إلى مؤلفيها، فالمؤلفون قبله كانوا يكتفون بذكر الدراسات السابقة بأسماء مؤلفيها فقط، أما هو فقد أضاف عنوان الكتاب إلي جوار مؤلفه.

ولعل ذلك يرجع إلى كثرة المؤلفات في ذلك العصر (النصف الثاني من القرن الثامن الهجري) مقارنة بكمِّ المؤلفات في القرون التي قبله بصفة عامة، ولتعدد مؤلفات الشخص الواحد، الأمر الذي جعل ابن حجر لا يكتفي بذكر الدراسة السابقة باسم مؤلفها فقط، وإنما يضم إلى اسم المؤلف عنوان الدراسة تمييزًا لها عن غيرها من المؤلفات للمؤلف نفسه؛ فتجده يقول: "**وصنف في ذلك جمع بعدهم... كأبي عمر بن عبد البر وسمى كتابه الاستيعاب...**"

ولم يذكر ابن حجر بعض دراساته السابقة بذكر اسم المؤلف وعنوان كتابه، بل ذكر - أيضًا - تاريخ تأليفه، فقال: "**إلى أن كان في أوائل القرن السابع، فجمع عز الدين بن الأثير كتاباً سماه "أُسد الغابة" جمع فيه كثيرًا من التصانيف المتقدمة**" وفي ذلك تطور ملحوظ في أسلوب ومنهجية المؤلفين عند ذكرهم للدراسات السابقة.

وأصبح ذكر الدراسة السابقة بعنوان الكتاب ومؤلفه أمرًا مستقرًا منذ ذلك الحين؛ فتجد الغزي يذكر عنوان الكتاب واسم مؤلفه كما يلي: "**فأنتخب ذلك من الكتب المعتبرة... من ذلك: تاريخ الخطيب البغدادي، وتاريخ ابن خلكان، وتاريخ ابن كثير، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة للحافظ ابن حجر، وإنباء الغمر بأنباء العمر، له** أيضًا، ورفع الإصر عن قضاه مصر، له أيضًا، وبغية العلماء والرواة لتلميذه الشيخ شمس الدين السخاوي"

كما أتى من بعدهم ابن مخلوف وسار على هذا النهج، فقال: "**سلك هذا الطريق العالم الشهير الذكر، الجليل القدر، أبو الفضل القاضي عياض فألف المدارك...، وتبعه العلامة الحامل لواء المعارف والفنون برهان الدين بن فرحون فألف الديباج، وذيله**

العالم العامل أبو العباس أحمد بابا بنيل الابتهاج، فرغ منه سنة خمس بعد المائة العاشرة..."

لوحظ على منهجية ذكر مؤلفي كتب التراجم - محل الدراسة - الدراسات في مقدمات كتبهم ما يلي:

١- الأدب الجم في عرض الدراسات السابقة، مما يدل على ذلك:

أ) استخدام ألفاظ التبجيل والتوقير لأصحاب تلك الدراسات، على سبيل المثال ما قال ابن الأثير: "**إلا أن الذي انتهى إليه جميع أسمائهم الحافظان أبو عبد الله بن منده، وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهانيان، والإمام أبو عمر بن عبد الله القرطبي. رضي الله عنهم وأجزل ثوابهم وحمد سعيهم وعَظّم أجرهم وأكرم مآبهم، فلقد أحسنوا فيما جمعوا وبذلوا جهدهم وأبقوا بعدهم ذكراً جميلاً، فالله تعالى يثيبهم أجرا جزيلاً فإنهم جمعوا ما تفرق منه**".

ب) الدعاء لأصحاب الدراسات السابقة؛ من باب الاعتراف بفضلهم، ومحاولة مكافأتهم، كما مر في المثال السابق لابن الأثير.

٢- عدم الاكتفاء بسرد الدراسات السابقة سردًا، وإنما يقوم المؤلف بتنظيمها وتقييمها والتعليق عليها.

٣- بدأت الإشارة إلى الدراسات السابقة بأسماء مؤلفيها، لشهرة مؤلفات تلك الحقبة بمؤلفيها وليس بعناوينها، ولما كثرت المؤلفات عمومًا وتعددت للمؤلف نفسه، كتب مؤلفو التراجم دراساتهم السابقة بالعنوان واسم المؤلف، بل أحيانًا كانوا يذكرون سنة التأليف.

٦) نظام الترتيب

تتميز فئة الكتب المرجعية - والتي من بينها كتب التراجم - عن غيرها من الكتب بمجموعة مميزات، من بينها عنصر "التنظيم"، فالكتاب المرجعي صُمِّم ونُظِّم وفقًا لخطة نسقية من أجل تيسير الحصول على معلومة معينة؛ ومن ثم فمن المفيد للقارئ أن يعرف كيفية تنظيم ذلك المرجع قبل استخدامه، الأمر الذي جعل ذِكْر نظام الترتيب في مقدمة المرجع أمرًا مهمًا، ولذا حرص أكثر من ٤٢٪ من كتب التراجم محل الدراسة على ذِكْر كيفية تنظيمها في مقدماتها، هذه الكتب هي: "المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن شاهين، و"طبقات الصوفية"، و"معرفة الصحابة"، و"رجال الطوسي"، و"الاستيعاب"، و"رجال البخاري"، و"ترتيب المدارك"، و"صفة الصفوة"، و"أسد الغابة"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"ميزان الاعتدال"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية"

للأسنوي، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"تهذيب التهذيب"، و"لحظ الألحاظ".

أول كتب التراجم التي ذكرت نظام الترتيب في مقدمتها هو كتاب "المعجم الصغير" للطبراني (ت٣٦٠هـ)، أما كتب التراجم محل الدراسة قبل ذلك التاريخ ككتاب "التاريخ الصغير"، وكتاب "الجرح والتعديل"، و"الثقات" لابن حبان و"مشاهير علماء الأمصار" ـ فلم تذكر طريقة تنظيمها في مقدماتها.

وهذا يعني أن طريقة تنظيم كتب التراجم ذُكرت في مقدماتها منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري؛ فقد أوضح الطبراني طريقة تنظيم كتابه "المعجم الصغير" بقوله: "**وجعلت أسماءهم على حروف المعجم**"، واستخدم ابن شاهين عبارة قريبة الشبه من ذلك فقال: "**وأخرجت أسماء "الثقات" على حروف المعجم**"، إلا أن ابن شاهين تميز عن الطبراني بذكر مبررات تلك الطريقة في التنظيم، بقوله: "**ليقرب على الناظر فيه اسم من قصده**"، وأما الإصبهاني فقد أطال العبارة إلى حدٍّ ما في ذكر طريقة تنظيم تراجمه، ودفعه لذلك تعقد نظام الترتيب الذي استخدمه؛ إذ قال: "**قدمت ذكر العشرة المشهود لهم بالجنة، وأتبعتهم بمن وافق اسمه اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رتبت أسامي الباقين على ترتيب حروف المعجم**"، يتضح من تلك الكلمات أن الإصبهاني قسّم كتابه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول ضم العشرة المبشرين بالجنة، القسم الثاني ضم الصحابة الذين اسمهم "محمد"، القسم الثالث باقي أسماء الصحابة، إلا أنه لم يذكر الطريقة التي رتب بها العشرة المبشرين بالجنة، هل رتبهم بالأفضلية أم بتاريخ الوفاة، أم هجائيًا، كما أنه لم يذكر كذلك كيف رتب الصحابة الذين اسمهم محمد، هل رتبهم هجائيًا وفقًا للاسم الثاني، أم رتبهم زمنيًا وفقًا لوفاتهم.

وأوضح الطوسي ما الذي يقصده بالترتيب على حروف المعجم، فقال: "وأرتب ذلك على حروف المعجم التي أولها الهمزة وآخرها الياء"، ثم أوضح مبررات اختيار ذلك النوع من الترتيب، فأردف قائلاً: "**ليقرب على ملتمسه ويسهل عليه حفظه**"، وهي عبارة قريبة الشبه إلى حد بعيد مع العبارة التي استخدمها ابن شاهين، ولعل هذا التشابه قد نتج عن اطلاع الطوسي على مقدمة كتاب "الثقات" لابن شاهين وتأثر به، أو أنها مجرد توارد أفكار وتشابه ألفاظ.

وذكر ابن عبد البر طريقة تنظيم كتابه، ومبررات اختيار ذلك النظام بقوله: "**وجعلته على حروف المعجم، ليسهل على من ابتغاه، ويقرب تناوله على طالب ما أحب منه**".

كما ذكر القاضي عياض طريقة ترتيب كتابه بقوله: "فابتدأنا بذكر الفقهاء من أصحابه خاصة، ثم بأتباعهم طبقة طبقة، وأخلافهم أمة بعد أمة إلى شيوخنا الذين أدركناهم وأئمة زماننا الذين عاصرناهم... على حسب تقدم أزمانهم وتعاقب أوقاتهم"، فأوضح جليًا أنه استخدم الترتيب الطبقي الزمني.

وأما ابن الجوزي فقد ذكر نظام ترتيب كتابه بالكثير من التفصيل في فقرة قاربت الثلاثين سطرًا متوسط السطر خمس عشرة كلمة، فقد ذكر تفصيلاً النظام الطبقي الذي استخدمه في ترتيب الصحابة والتابعين، ومن بعدهم رجالهم ونساؤهم، من عرف من أسمائهم ومن لم يعرف، حتى ختم كتابه بعباد الجن، ولا يتسع المقام لذكر ما قاله ابن الجوزي لإيضاح طريقة ترتيب كتابه، إلا أن اللافت للنظر هنا هو عنونة ذلك الجزء من المقدمة يسبقها كلمة فصل، كما يلي: "فصل في بيان ترتيب كتابنا"، فليس التفصيل وحده دليلاً على معرفة الرجل بأهمية إيضاح ذلك العنصر، بل عنونته إياه أيضًا.

وأما النووي فقد زاد شيئًا عن الذين سبقوه، فكان هو أول من ذكر أمثلة تطبيقية ليتضح أكثر نظام الترتيب الذي استخدمه؛ فتجده يوضح نظام الترتيب الذي استخدمه، بقوله: "وارتب جميع ذلك على حروف المعجم، لكن أبدأ فيه بمن اسمه محمد"، ثم يذكر مبررات خروجه عن الترتيب الهجائي ببدايته بمن اسمه محمد، ويذكر سلفه في ذلك، فيقول: "لكن أبدأ بمن اسمه محمد كما فعل أبو عبد الله البخاري والعلماء بعده. رضي الله عنهم. لشرف اسم النبي صلى الله عليه وسلم". ثم يشرح تفصيلاً ما يعنيه بالترتيب على حروف المعجم فيقول: "فأبدأ بحرف الهمزة، ثم الباء، ثم التاء، ثم الجيم، إلى آخرها، وأعتمد في الاسم الحرف الأول، فأقول: حرف الهمزة، أذكر فيه كل من في اسمه ألف، مقدماً منهم من بعد الألف فيه الأول فالأول". ثم يعطي نماذج توضيحية لما يقول، فيقول: "فأقدم آدم على إبراهيم؛ لأنهما وإن اشتركا في أن أولهما همزة، لكن بعد همزة آدم همزة أخرى، وبعد همزة إبراهيم باء، والهمزة مقدمة على الباء" ويعدد الأمثلة في ذلك، فيقول: "فأقدم أبيض بن جمال، على أُبَي بن كعب؛ لأنهما وإن اشتركا في الهمزة والباء، فرابع أبيض ضاد، ورابع أُبَي ياء أخرى" ثم يشرح تفصيلاً كيفية استخدامه الترتيب الهجائي في حال التشابه في الاسم الأول وحال التشابه في الاسم الأول والثاني وهكذا. فيقول: "فإن اشترك اثنان في جميع الحروف كإبراهيم وإبراهيم، قدمت بالآباء، فأقدم إبراهيم بن آزر على إبراهيم بن إبراهيم".

هذا فيما يخص نظام الترتيب الذي اتبعه في ترتيب الأسماء، أما نظام ترتيبه للغات فيذكره أيضًا، بقوله: "وأما اللغات: فارتبها أيضًا على حروف المعجم على حسب

ما سبق من مراعاة الحرف الأول والثاني وما بعده، مقدمًا الأول فالأول" ثم يوضح كيفية تعامله مع الحروف الزائدة، فيقول: "معتبرًا الحروف الأصلية ولا انظر إلى الزوائد".

هذا التفصيل المتقن يدل على مدى وعي النووي للعنصر الذي يتناوله، فيتناوله بإحكام بادئًا بذكر نوع التنظيم الذي اتبعه، ثم يوضح كنه ذلك النظام، ويعطي أمثلة تفصيلية لتوضيح كلامه، ثم ينتقل إلى ذكر نظام الترتيب الذي اتبعه في القسم الثاني من كتابه، ويذكر كيفية تعامله مع الحروف الزائدة، إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على نضج النووي بصفة خاصة ونضج مؤلفي كتب التراجم في هذه الحقبة (القرن السابع الهجري) على وجه العموم؛ يدل على ذلك النضج العام لمؤلفي كتب التراجم أن ابن الأثير ذكر نظام الترتيب الذي اتبعه بنضج النووي نفسه، فقال ابن الأثير: "**وأما ترتيبه ووضعه فإنني جعلته على حروف ا ب ت ث، ولزمت في الاسم الأول الحرف الأول والثاني والثالث وكذلك إلى آخر الاسم، وكذلك في اسم الأب والجد ومن بعدهما**". ثم أعطى أمثلة للتدليل على ما يقول، فيذكر: "**مثاله أنني أقدم أبانًا على إبراهيم؛ لأن ما بعد الباء في أبان ألف، وما بعدها في إبراهيم راء**". من هذين النموذجين يتضح مدى نضج مؤلفي كتب التراجم خاصة في ذكر كيفية تنظيم الكتاب في مقدمة كتبهم.

وأما في القرن الثامن الهجري فيظهر دليل آخر على نضج مؤلفي كتب التراجم فيما يخص ذكر عنصر التنظيم في المقدمة، فها هو الأسنوي - قبل أن يذكر نظام ترتيب كتابه - يذكر نظم الترتيب التي استخدمها بعض مؤلفي كتب التراجم، فيقول: "**اعلم أن المصنفين في هذا الفن (يعني: التراجم) - رحمهم الله - منهم من رتب ما ذكره على الأعمار؛ كالعبادي، والشيخ أبي إسحاق، ومنهم من رتبه على الأسماء والأعلام وراعى حروف المعجم؛ كالتفليسي، وابن الصلاح، وأصحاب المشيخات المخرجة، ومنهم من رتبه على كل عام ككثير من المؤرخين**"، ثم يعلق الأسنوي على نظم الترتيب هذه، ثم يختار أفضلها موضحًا مبررات اختيار ذلك النظام، فيقول: "**كل ذلك يؤدي إلى تعب شديد، ويحوج إلى معرفة تاريخ موت الشخص، أو حفظ اسمه من قبل، فاستخرت الله تعالى، واسترشدته فأرشد وله الفضل والمنة إلى ترتيبهم على حروف المعجم**"، ثم يوضح - بشيء من التفصيل - هذا الترتيب، فيقول: "**ترتيبهم على حروف المعجم، معتبرًا أول حرف من اللفظ الذي يحصل عند التعريف والشهرة، اسما كان أو نسبة أو صفة ونحو ذلك حتى اعتبر في الآباء ونحوهما، وفي ما اشتهر بتصنيفه ونحوه بالاسم الأخير، وهو المضاف إليه**". ثم يعطي الأمثلة التوضيحية اللازمة لإيضاح نظام ترتيب كتابه، فيقول: "**فأذكر مثلاً: ابن سريج، وأبا الطيب بن سلمة في السين، وابن بنت**

الشافعي في حرف الشين المعجمة".

بهذه النماذج يتضح كيف بدأت كتب التراجم في ذكر نظام ترتيبها في المقدمة، وكيف تطورت من مجرد ذكر اسم النظام إلى توضيح هذا النظام، ووصولاً إلى نضج ووعي جعلهم يشرحون تفصيلاً نظام الترتيب المستخدم، ومبررات اختيار ذلك النظام دونما سواه، مع إعطاء الأمثلة اللازمة لإيضاح ذلك النظام أكثر.

٧) تقسيم الكتاب

نظرًا لأن مقدمات الكتب في البداية كانت "تؤدي عدة وظائف استقلت عن بعضها فيما بعد، وهي: العنوان، والفهرس، والتقديم للموضوع، والتمهيد له، وقائمة المراجع"[١]؛ لذا حرص ٣٨٪ من مقدمات كتب التراجم محل الدراسة على ذكر تقسيمات وأجزاء ومحتويات كتبهم في المقدمة، هذه الكتب هي: "مشاهير علماء الأمصار"، و"طبقات الصوفية"، و"الاستيعاب"، و"طبقات الفقهاء"، و"ترتيب المدارك"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"صفة الصفوة"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"المُغني"، و"ميزان الاعتدال"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"الإصابة"، و"طبقات المدلسين"، و"طبقات المفسرين"، و"شجرة النور".

وأول من ذكر محتويات كتابه في المقدمة هو ابن حبان (ت٣٥٤هـ) في كتابه "مشاهير علماء الأمصار" بقوله: "**واقصد في ترصيفها للمتعلمين قصد تفصيل المدن في الأصقاع... أولها: الحجاز بحواليها، والثاني: العراق بنواحيها، والثالث الشام بأطرافها، والرابع مصر بجوانبها، والخامس اليمن بما والاها. والسادس: خراسان بما دار عليها**". وذكر السلمي تقسيمات كتابه بشكل عام، بقوله: "**أجعله على خمس طبقات من أئمة القوم ومشايخهم وعلمائهم، فأذكر في كل طبقة عشرين شيخًا**". كما ذكر الشيرازي تقسيم كتابه بشكل عام - أيضًا - فقال: "**وبدأت بفقهاء الصحابة رضي الله عنهم، ثم من بعدهم التابعين وتابعي التابعين - رحمهم الله -، ثم بفقهاء الأمصار**". وأشار ابن الجوزي إلى تقسيم كتابه بقوله: "**أنا أبتدئ بتوفيق الله سبحانه ومعونته فأذكر بابًا في فضل الأولياء الصالحين، ثم أردفه بذكر نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وشرح أحواله وآدابه وما يتعلق بها، ثم أذكر المشهورين من أصحابه... ثم أذكر التابعين**".

هذه النماذج السابقة المنتمية إلى القرن الرابع والخامس والسادس الهجري ذكر مؤلفوها تقسيمات كتبهم بشيء من العمومية، أما في القرن السابع فقد اتضحت الأمور

(١) عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي. مرجع سابق. ص ص١٥١ - ١٥٢ .

أكثر ونضجت كذلك؛ يدل على ذلك التقسيم الواضح الذي ذكره النووي، فقال: "وارتب الكتاب على قسمين. الأول: في الأسماء، والثاني: في اللغات. فأما الأسماء فضربان: الأول في الذكور، والثاني في الإناث، فأما الأول فثمانية أنواع: الأول: في الأسماء الصحيحة ...، والثاني: في الكنى...، والثالث: الأنساب والألقاب والقبائل...، الرابع: ما قيل فيه ابن فلان، أو ابن فلانة، أو أخوه، أو أخته، أو عمه، أو خاله...، الخامس: ما قيل فيه فلان، عن أبيه، عن جده، والسادس: زوج فلانة، وزوجة فلان، والسابع: المبهمات...، والثامن: ما وقع من الأسماء والأنساب غلطاً، وأما الضرب الثاني وهو النساء: فهو سبعة أنواع على الترتيب المذكور في الرجال، ويسقط منهن النوع الخامس...، وباقي الأنواع موجودة. وأما اللغات: فأرتبها على حروف المعجم". هذا النموذج يعد نموذجًا ناضجًا لذكر المؤلفين تقسيمات كتبهم، فلو أخذت الفقرة السابقة ورتبت كل جزئية في سطر مستقل وأمامه رقم الصفحة لأصبحت قائمة كاملة لمحتويات ذلك الكتاب تشبه قائمة المحتويات في العصر الحالي.

وأما الذهبي من علماء القرن الثامن الهجري فلم يذكر تقسيم كتابه بشكل مفصل كما ذكر النووي، وإنما ذكره بشكل أعم قليلاً، ولكن ليس كعمومية مؤلفي القرن الرابع والخامس والسادس الهجري، فقال في مقدمة كتاب "ميزان الاعتدال": "وقد احتوى كتابي هذا على ذكر الكذابين الوضاعين المتعمدين...، وعلى المتهمين بالوضع أو التزوير، ثم على الكذابين في لهجتهم لا في الحديث النبوي، ثم على المتروكين...، ثم على الضعفاء من قبل حفظهم...، ثم المحدثين الصادقين أو الشيوخ المستورين الذين فيهم لين... ثم على خلق كثير من المجهولين... ثم على "الثقات" الأثبات الذين فيهم بدعة..." بهذه الفقرة أوضح الذهبي مجال تغطيته، كما أوضح أيضًا محتويات كتابه وتقسيماته.

وذكر الأسنوي من علماء القرن الثامن الهجري تقسيمات كتابه بشكل أوضح من الكتاب الذي سبقه، فيقول: "بدأت أولاً بترجمة الإمام الشافعي، ثم بأصحابه الذين عاصروه وأخذوا منه... ثم ذكرت لباقي الأصحاب أبوابًا على عدد حروف المعجم، وذكرت في كل باب منها فصلين: الأول: الأسماء الواقعة في "الشرح الكبير" للرافعي، و"الروضة" للنووي... والفصل الثاني: في الأسماء الزائدة على ما وقع في الكتابين".

وفي القرن السابع الهجري يذكر ابن حجر تقسيمات كتابه "الإصابة"بشكل أكثر وضوحًا يشبه قائمة المحتويات اليوم، فيقول: "رتبته على أربعة: فالقسم الأول: فيمن وردت صحبته بطريقة الرواية عنه. القسم الثاني: فيمن ذكر في الصحابة من الأطفال.

القسم الثالث: فيمن ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا رأوه.
القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط.

ويأتي السيوطي في القرن العاشر الهجري ويقسم كتابه بشكل واضح ـ أيضًا ـ، فيقول: "**الأول: المفسرون من السلف والصحابة والتابعين وأتباع التابعين. الثاني: المفسرون من المحدثين. الثالث: بقية المفسرين من علماء أهل السنة. الرابع: من صنف تفسيراً من المبتدعة**"

وأما ابن مخلوف فقد ذكر تقسيم كتابه بنوع من الاحترافية والخبرة؛ ولا غرو في ذلك فقد كُتِبت الكثير من المقدمات من قبله وتراكمت الخبرات، فأتى تقسيمه واضحًا وناضجًا أكثر من سابقيه، فيقول: "**ورتبته على مقدمة فيها سبع فرائد... ومقصد به سبع وعشرون طبقة... وختمته بخاتمة قيمة في تاريخ فنون السنة... وتتمة قيمة في طبقات أمراء إفريقية... وخاتمة في خصوص الكلام على "المنستير" وهو مسقط رأس العبد الفقير**".

وهكذا نجد أن مؤلفي كتب التراجم بدأوا بذكر تقسيمات كتبهم في المقدمة في فقرة قصيرة، ثم ازدادت طولاً وتفصيلاً، ثم تطور ذكرها في شكل عناصر أشبه بعناوين الأبواب والفصول اليوم.

٨) المادة المرجعية

منذ القرن الثالث الهجري ومؤلفو كتب التراجم حريصون على الإشارة إلى المادة المرجعية التي تقدمها كتبهم في المقدمة؛ إذ حرص أكثر من ثلث مؤلفي التراجم ـ بما يمثل ٣٨٪ من كتب التراجم محل الدراسة ـ على الإشارة إلى مادتهم المرجعية، هذه الكتب هي: "التاريخ الصغير"، و"المعجم الصغير"، و"طبقات الصوفية"، و"حلية الأولياء"، و"معرفة الصحابة"، و"الاستيعاب"، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الفقهاء"، و"ترتيب المدارك"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"الطبقات الكبرى"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور".

فترى البخاري يذكر في مقدمته "المادة المرجعية" التي قدمها في كتابه، وهي: "**وفاتهم، وبعض نسبهم، وكناهم، ومن يرغب في حديثه**"، فأشار بذلك أن كتابه يعطي عن كل شخصية ذكرها تاريخ الوفاة ونسبه وكنيته وغير ذلك. بعده بقرن تقريبًا يأتي الطبراني، ويقول: "خرجت عن كل واحد منهم حديثًا واحدًا". أما السلمي فيشير إلى أنه

ذكر عن كل شخصية ترجم لها سيرته، وشمائله، وبعضًا من أقواله المأثورة، فيقول: "**وأذكر لكل واحد من كلامه وشمائله وسيرته ما يدل على طريقته وحاله وعلمه بقدر وسعي وطاقتي**". وأما الإصبهاني فيشير إلى أنه ذكر اسم من ترجم له وبعضًا من أحاديثه وكلامه، فيقول: "**كتاب يتضمن أسامي جماعة وبعض أحاديثهم وكلامهم**"، كما يشير في كتابه الآخر "معرفة الصحابة" إلى أنه سيعطي البيانات التالية عن كل شخصية: مكان المولد والوفاة والعمر، فيقول "**اقتصرت من جملتها ما بلغ منهم على حديث أو حديثين... ذكر المولد والسن والوفاة**"، وابن عبد البر يذكر مادته المرجعية بوضوح باستخدام الفعل المناسب لذلك، فيقول: "**وأذكر عيون فضائل ذي الفضل منهم وسابقته، ومنزلته، وأبين مراتبهم**". ويستخدم القشيري الفعل نفسه ولكن بصيغة الماضي فيقول: "**وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم، وأخلاقهم، ومعاملاتهم، وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية من بدايتهم إلى نهايتهم**". وأما الشيرازي فيشير إلى مادته المرجعية بشكل أوضح، ويستخدم صيغة المصدر ، فيقول: "**ذِكْرُ الفقهاء وأنسابهم، ومبلغ أعمارهم، ووقت وفاتهم، وما دل على علمهم من ثناء الفضلاء عليهم، وذكر من أخذ عنهم العلم من أتباعهم وأصحابهم**". بينما يذكر القاضي عياض مادته المرجعية في خمسة مواضع متفرقة من مقدمته، هذه المواضع الخمسة يكمل بعضها بعضاً، فيول: "**فأنبأنا بأسمائهم وأعرينا عن ألقابهم، وأنسابهم، وقيدنا مهملها**"، ثم يكمل في موضع آخر ويقول: "**ثم ذكرنا من مولدهم ووفاتهم وذكر مشايخهم ورواتهم وتصنيف أزمانهم وطبقاتهم ما انتهى إلينا علمه، وصح عندنا نقله؛ لتعرف بذلك أوقاتهم، وليتبين في التقدم والتأخر درجاتهم، ويتميز بذلك المتصل من المنقطع من روايتهم**". في هذا الموضع زاد مبررات ذكر هذه المادة المرجعية عن كل شخصية بقوله: "**لتعرف بذلك أوقاتهم، وليتبين في التقدم والتأخر درجاتهم...إلخ**" ثم ذكر في موضع ثالث قوله: "**ثم ذكرنا بعد هذا من فضائلهم، ومناقبهم، وثناء الأجلاء عليهم، وتوثيق المزكي، ومنازلهم من الذكاء والعدالة، ومراتبهم في العلم والرواية**". وفي الموضع الرابع يكمل قائلاً: "**وذكرنا من محن ممتحنيهم، وبلايا مبتليهم ما فيه مسلاة للممتحنين**" وفي الموضع الخامس والأخير يكمل بقوله: "**وانتقينا أثناء ذلك من نوادر ظرفائهم وملح آدابهم ومحاسن شعرائهم ما ينشط النفس من كسلها**". هذه المواضع الخمسة ليس فيها تكرار، ولو ضُمت بعضها إلى بعض لاتضح ما قدمه من مادة مرجعية عن كل شخصية ترجم لها.

ولعل إشارة القاضي عياض إلى مادة كتابه المرجعية في أكثر من موضع ترجع إلى

الأسلوب النثري الأقرب إلى الأسلوب الخطابي الذي استخدمه في كتابة المقدمة.

وأشار الجعدي إلى مادته المرجعية، سبقها بدعاء الله بالعون على ذلك، فقال: "**فإني أسال الله العون على تلخيص ما أردته وتقريبه، وتخصيص ما نويته وتهذيبه؛ من ذكر فقهاء اليمن ومبلغ أعمارهم، ومعرفة ساداتهم، وأنسابهم ووقت وفاتهم**"، وهنا دمج المؤلف في تلك الجزئية بين مجال تغطية الكتاب ومادته المرجعية، ورغم ذلك الدمج فهما واضحتان.

وأشار الأسنوي إلى مادته المرجعية بعد عرضه لمجال تغطية كتابه، فقال: "... **طبقات مستقلة، جامعة لهذه الأسماء وغيرها... مشتملة على ما تيسر الاطلاع عليه من مواليدهم، ووفياتهم، وأعمارهم، وبلادهم، وشيوخهم، ومما غلب عليه من الفنون، وشيئاً من شعرهم وتصانيفهم، ومناصبهم التي باشروها**".

وأما الغزي فقد التمس لنفسه الأعذار في ختام إشارته إلى مادته المرجعية بقوله: "**... مستوفيًا لأخبارهم، وفضائلهم، ومناقبهم، وذكر مؤلفاتهم ومصنفاتهم، ومحاسن أشعارهم، ونوادر أخبارهم، وغير ذلك، بحسب الطاقة ونهاية القدرة، وإلا فهم ممن لا يمكن حصره...**".

وأما ابن مخلوف الآتي آخرهم في الترتيب الزمني فلم يضف جديدًا في أسلوب عرضه للمادة المرجعية ؛ لأنه قال: "**ولم آلُ جهداً في تحرير اسم المترجم له، وعن أخذ فنون عمله، وما له في التآليف التي هي من محاسن نثره وبديع نظمه، مع ذكر محاسن الصفات وإثبات المواليد والوفيات**".

وهكذا أشار مؤلفو كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ إلى مادة كتبهم المرجعية في مقدمات كتبهم، إلا أنه لوحظ عليهم ما يلي:

١- الاتصال الوثيق بين مجال تغطية الكتاب والمادة المرجعية التي يقدمها؛ دل على ذلك :

أ) الإشارة إلى المادة المرجعية بعد ذكر مجال تغطية الكتاب، مثلما فعل الأسنوي، والسلمي، والبخاري،وغيرهم.

ب) دَمْج مجال تغطية الكتاب والإشارة إلى مادته المرجعية في فقرة واحدة؛ مثلما فعل الإصبهاني في "حلية الأولياء" والشيرازي، والجعدي، وغيرهم.

٢) الإطالة والاختصار في الإشارة إلى المادة المرجعية التي يقدمها الكتاب مرتبطة بكم وحجم وتنوع المادة المرجعية التي يقدمها الكتاب فعلاً: فكتاب مثل "معرفة

الصحابة" أشار إلى مادته المرجعية باستخدام أربع كلمات "**ذكر المولد والسن والوفاة**" لأنه لا يقدم فعلاً إلا هذه العناصر الثلاثة، وأما كتاب مثل "**طبقات الشافعية**" للأسنوي فقد أشار إلى مادته المرجعية في ثلاثة أسطر، وذلك لأنه يقدم تسعة عناصر في مادته المرجعية.

٩) مصادر الكتاب

مصادر ومراجع الكتاب هي تلك الأعمال التي اعتمد عليها المؤلف في كتابه، والمؤلفون يحرصون على ذكر المصادر التي تم الرجوع إليها "لإضفاء الصبغة العلمية على كتابه، وذلك بالكشف عن أن الاعتماد في استقاء المعلومات الواردة في البحث كان عن طريق المصادر الموثوق بها، ولتقديم بيان بالمصادر التي تدور حول موضوع البحث لمن أراد الاستزادة في الموضوع، وبالتالي يتيح الفرصة لمن شاء التوسع أن يطلع على ما شاء من مصادر ذكرها"[١] . كما أن ذِكْرَ المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في إنجاز كتابه يعتبر أيضًا دليلاً على أمانته العلمية. "ولا شك أن المصادر التي يشار إليها في مقدمات الكتب تمثل حصرًا ببليوجرافيًا فريدًا لأعمال أُلفت بالفعل، وربما كانت تلك الإشارات هي الوحيدة التي تدل على وجود تلك الكتب، فكثير منها لم يصلنا، وفُقد ضمن ما فُقد من كتب التراث"[٢] .

لهذه الأسباب وغيرها حرص ثلث مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة على ذكر المصادر التي اعتمدوا عليها والإشارة إليها في المقدمة، هذه الكتب هي: "ترتيب المدارك"، و"أسد الغابة"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"المُغني"، و"ميزان الاعتدال"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"نهاية الدرايات"، و"الإصابة"، و"تهذيب التهذيب"، و"طبقات المدلسين"، و"لسان الميزان"، و"لحظ الألحاظ"، و"الطبقات السنية".

يتضح من ذلك أن إشارة مؤلفي كتب التراجم إلى المصادر في مقدمة كتبهم تأخر نوعًا ما، إذ كانت أول إشارة إلى المصادر في القرن السادس الهجري، وهي إشارة القاضي عياض(ت٥٤٤هـ)، فبعد أن ذكر العديد من الدراسات السابقة في مجال كتابه، قال: "**وأكثر تعويلي فعلى كتاب "التستري" و"الضراب"، وتتبعت من غيرهما ما فيه زيادة فائدة أو نادرة لم تقع فيهما**". ثم ذكر منهجية تعامله مع هذه المصادر، فقال: "**وحذفت**

(١) شعبان عبد العزيز خليفة: المحاورات في مناهج البحث. مرجع سابق. ص ص١١٢ ـ ١١٣ .

(٢) داليا عبد الستار الحلوجي: كتب التراجم في التراث العربي. مرجع سابق. ص ٨٥ .

كثيراً مما أطالوا به من كلامه في التفسير والجوامع والرجال؛ إذ ليس من الغرض، وله مظان أخر هي به أليق"

وبعد مائة عام تقريبًا يشير ابن الأثير(ت٦٣٠هـ) إلى مصادر كتابه، ولم يفرق هنا بين الدراسات السابقة وبين مصادر كتابه، وذكرهما في فقرة واحدة، ومن كلامه يتضح أنها دراسات سابقة وهي في الوقت نفسه مصادر اعتمد عليها في إعداد كتابه، فقال: "**وقد جمع الناس في أسمائهم كتبًا كثيرة**"، هذه الجملة تدل على أن الكتب التي ذكرها بعدها هي دراسات سابقة، إلا أنه بعد أن ذكر عدة كتب، يقول: "**فرأيت أن اجمع بين هذه الكتب، وأضيف إليها ما شذ عنها**"، ولا عجب أن تكون الدراسات السابقة هي في الوقت نفسه مصادر للدراسة.

وبعده بأقل من نصف قرن يشير النووي (ت٦٧٦هـ) إلى المصادر التي اعتمد عليها، إلا أن هناك مميزات تميز بها النووي عمن قبله، هذه المميزات فيما يخص الإشارة إلى المصادر في المقدمة هي:

١- أنه أطال النفس في ذكر المصادر التي اعتمد عليها في كتابه، فقد ذكر بيانات أكثر من ستة وخمسين مصدرًا في أكثر من خمسة وثلاثين سطرًا، متوسط عدد كلمات السطر الواحد اثنتا عشرة كلمة.

٢- أنه عرض مصادره في قسمين، بما يتوافق مع تقسيم كتابه، فعرض أولاً المصادر الخاصة بالأسماء، وعرض ثانيًا المصادر الخاصة باللغات.

٣- أنه قسم مصادره في كل قسم من القسمين تقسيمًا موضوعيًا؛ إذ قسم مصادر القسم الأول كما يلي: الأسماء وبيان أحوال أصحابها، كتب التواريخ الكبار، كتب أسماء الصحابة، كتب ضبط الأسماء، كتب "طبقات الفقهاء"، الأنساب، كتب المبهمات. وأما كتب القسم الثاني فقسمها وفق التالي: كتب غريب الحديث، كتب تفسير القرآن، الكتب المصنفة في أنواع من مفردات اللغة، الكتب المصنفة في لحن العوام، شروح الحديث، كتب الفقه والأصول والكلام، كتب الأماكن.

٤- ذكر عن كل مصدر من مصادره عنوانه واسم مؤلفه وأحيانًا اسم مؤلفه فقط، وربما علق على الكتاب بقوله: "**وهو نفيس لم يصنف مثله ولا قريب منه، ولا يغني عنه في معرفة الفقهاء غيره**"، وربما علق على مؤلفه، مثل: "**والطبقات الصغير لمحمد بن سعد كاتب الواقدي، وهو ثقة، وإن كان شيخه الواقدي ضعيفاً**".

٥- تحديد نوعية الكتب التي يمكن أن تعتبر مصادر، وصفات مؤلفيها، بمثل قوله:

"وانقل كل ذلك إن شاء الله محققًا مهذبًا من مظانه المعتمدة، وكتب أهل التحقيق"، ومثل قوله: "نقلته من كتب الأئمة الحفاظ والأعلام المشهورين بالإمامة في ذلك، والمعتمدين عند جميع العلماء"، وكأنه يقول إنه لن ينقل من أي كتاب، أو لأي مؤلف، وإنما لا بد أن تتوافر فيه صفات معينة.

٦- ذكر منهجية النقل من المصادر، اتضح ذلك من مثل قوله: "وانقل كل ذلك إن شاء الله محققًا مهذبًا"، ومن مثل قوله: "فما كان مشهورًا لا أصنفه غالبًا إلى قائليه، لكثرتهم وعدم الحاجة إليه، وما كان غريبًا أضفته إلى قائله أو ناقله"، ومثل قوله: "وسترى إن شاء الله تعالي ما أنقله من هذه الكتب مضافًا إليها كلها من مواطنها".

وفي القرن الحادي عشر يشير الغزي (ت١٠١٠هـ) إلى المصادر التي اعتمد عليها بمنهجية تشبه منهجية النووي؛ فحدد بدايةً الكتب التي تعتبر مصادر يعتمد عليها بقوله: "فانتخبت ذلك (أي: مادة كتابه) من الكتب المعتبرة، التي يُرجع في النقل إليها ويُعوَّل في الرواية عليها"، ثم ذكر قرابة الخمسين مصدرًا، يذكر عن كل مصدر عنوانه واسم مؤلفه، وأحيانًا يعلق على بعضٍ من تلك المصادر، بمثل قوله: "الجواهر المضية في طبقات الحنفية للشيخ عبد القادر القرشي، وهي أكبر طبقات وقفت عليها لأئمتنا السادة الحنفية، مع أنها مختصرة بالنسبة إلى شأن من صُنفت في حقهم". وبمثل قوله: "طبقات الفقهاء" لأبي إسحق الشيرازي وهي شاملة لسائر الفقهاء الكبار والمجتهدين الأخيار من أصحاب المذاهب المتبعة وغير المتبعة من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى الزمن الذي كان فيه". هذه التعليقات تدل على مدى فهمه لقدر تلك المصادر، وحدودها الموضوعية والزمنية، وما تحويه من معلومات. ثم ذكر - رحمه الله - منهجية النقل من تلك المصادر، بقوله: "ولا أنقل شيئًا إلا بعد أن يشهد له العقل والنقل، وغلبة الظن بالصحة". منهجية واضحة، أشبهت منهجية النووي، إلا أنه لم يقسم مصادره موضوعيًا كما فعل النووي، رحمهم الله جميعًا.

وأما ابن مخلوف (ت١١٦٠هـ) فلم يشر إلى المصادر التي اعتمد عليها، فهل غابت هذه الجزئية عن تفكيره؟ الذي يرجحه الباحث أن ابن مخلوف لم يشر إلى مصادر كتابه في المقدمة لأن هذه المصادر أُفرد لها جزء مستقل في كتابه وهو "قائمة المصادر والمراجع" إذ استقلت قائمة المصادر والمراجع عن المقدمة فيما بعد.

إضافة إلى ذلك، يلاحظ أن الكثير منهم خلطوا بين "الدراسات السابقة" و"مصادر الكتاب"، اتضح ذلك من ذكرهم جميعًا في فقرة واحدة، فلم يُفرد لكلٍ منها فقرة

مستقلة، كما فعل: ابن الأثير، والذهبي في "المُغني"، وفي "ميزان الاعتدال"، والأسنوي في "طبقات الشافعية"، وابن حجر في "الإصابة"وفي "تهذيب التهذيب"وفي "طبقات المدلسين" وفي "لسان الميزان"، والهاشمي.

١٠) عنوان الكتاب

مما لا تخلو منه مقدمة - إلاَّ نادرًا - عنوان الكتاب، وهو ما يُوجز موضوع الكتاب ومقصدَ صاحبه منه، وبه يُصبح للكتاب اسمًا، و"لفظ الاسم معناه: العلامة، والاسم يدل على ما يُعرف به، والاسم مشتق من سموت؛ لأنه تنويه ورفعة ودلالة على المعنى، وإنما جُعل الاسمُ تنويها ودلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم، واسم الكتاب عنوانه، وترجع مادة عنوان إلى أصليْن: الحَبْسُ والظهور، فالعُنَّةُ الحظيرة؛ لأنه يُحبَسُ فيها البهائم، وعَنَّ الدابةَ كَبَحَها بالعِنان، وعنوان الكتاب مأخوذ من ذلك، فطبيعة العنوان تقتضي محاصرة موضوع الكتاب وَحَبْسه. وللكلمة أصل آخر وهو البُدُوُّ، تقول: عَنَّ لي شيء، أي: بان وظهر، ويُستفاد من هذا أن العنوان يُصبح دليلا على ما ينطوي عليه موضوع الكتاب، كما أنه يُبين ويكشف عن محتواه، وتُستعار مادة عَنَّ لتدل على المعنى وعلى ما يُستدلُّ به على الأثر المكتوب، يُقال: عَنَّ الكتابَ يعنُّه عنًّا: عَنْوَنَه. وعنوان الكتاب: سِمَتُه، مشتق من المعنى. ويُسمى عنوانًا لأنه يعُنُّ الكتابَ، أي: يَعْرِضُه ويكشف معناه، يُقال للرجل الذي يُعرِّض ولا يُصرِّح: قد جعل كذا وكذا عنوانًا لحاجته. وهكذا فأصل العنوان ما دل على الشيء"[١] .

و"ذِكْرُ المؤلف لعنوان مُصنَفه في ثنايا المقدمة من العوامل التي أتاحت المجال للعديد من المؤلفين لأن يحافظوا على هويات كتبهم، لكي لا يتيحوا مجالاً للعبث بها من أي نوع"[٢] . ومن المؤكد أن من يذكر عنوان الكتاب في المقدمة - "إنما يعبر عن موقف واضح وحدود مرسومة، وهو في الوقت ذاته يصونه من العبث، ويمنع الآخرين أن يتصرفوا به؛ فمن الملاحظ أن الكتب التي ذكر مؤلفوها عناوينها في المقدمة - بقيت عناوينها كما أوردها مؤلفوها، في حين تغير كثير من أسماء الكتب التي لم يؤكدها أصحابها ويسجلوها صراحة في مقدمات كتبهم"[٣]؛ مثل كتاب "رجال الطوسي" الذي يطلق أحيانًا "رجال الكشي" ويُعنْوَن أحيانًا أخرى "اختيار معرفة الرجال"، "لأن هذه

(١) عباس أرحيلة: عنوان الكتاب وتسميته. مصدر إلكتروني.

(٢) هاني صبحي العمد: مقومات مناهج التأليف العربي. مرجع سابق. ص٢٢ .

(٣) المرجع السابق. ص ٢٦ .

العناوين الأخرى قد تكون من صنع نساخ المخطوطة أو مالكيها أو محققيها"[١] . ولذكر العنوان في المقدمة أهمية أخرى: أن صفحة عنوان الكتاب قد تسقط وتفقد فلا يستدل على عنوانه الحقيقي، فيضطر المفهرس أو المحقق أن يضع له عنوانًا من عنده[٢] .

لذا حرص ١٦,٦٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة على ذكر عناوين كتبهم في ثنايا مقدمات كتبهم، هذه الكتب هي: "طبقات الصوفية"، و"صفة الصفوة"، و"نهاية الدرايات"، و"لسان الميزان"، و"لحظ الألحاظ"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور"، فكان أول ذِكر لعنوان الكتاب في ثنايا مقدمة "طبقات الصوفية" للسلمي (ت٤١٢هـ)، الذي ذكره صراحة بقوله: "**أسميته طبقات الصوفية**". وبعد عشرين سنة أخرى تقريبًا ذكر الهاشمي عنوان كتابه "لحظ الألحاظ"، بقوله: "**وسميته لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ**"، وبعد مائتي سنة تقريبًا ذكر ابن الجوزي عنوان كتابه صراحة، بقوله: "**سميت كتابي هذا صفة الصفوة**"، وبعد مائتي سنة أخرى تقريبًا ذكر ابن الجزري عنوان كتابه، بقوله: "**سميته "نهاية الدرايات في أسماء وحال القراءات"**، وبعده بعشرين سنة تقريباً ذكر ابن حجر عنوان كتابه، بقوله: "**وسميته لسان الميزان**"، وكان ذلك في آخر المقدمة، بينما ذكر كل من السلمي، وابن الجوزي عنوان كتابه في منتصف مقدمته، وفي بداية القرن الحادي عشر الهجري ذكر الغزي عنوان كتابه في نهاية مقدمته بقوله: "**وسميته الطبقات السنية في تراجم الحنفية**".

وعلى الرغم من ظهور صفحة خاصة لعنوان الكتاب، إلا أن ابن مخلوف ذكر عنوان كتابه في وسط مقدمته، بعدما ذكر تصوره لكتابه بأنه شجرة، وذلك بقوله "**وسميته شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**".

إضافة إلى ما سبق لوحظ على سلوك مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة حيال ذكرهم لعناوين كتبهم في ثنايا المقدمة، ما يلي:

١- أن بعضهم ذكر عنوان كتابه وسط المقدمة، مثل: السلمي، وابن الجوزي، والهاشمي، وابن مخلوف. بينما ذكره البعض الآخر في نهاية مقدمته، مثل: ابن حجر، والغزي.

٢- أن بعضهم أتبع ذكر عنوان الكتاب بدعاء، مثل: الهاشمي، والغزي، بينما أتبعه

(١) داليا عبد الستار الحلوجي: مرجع سابق. ص٨٣ .
(٢) المرجع السابق. ص٨٤ .

آخرون بذكر مجال تغطية كتابهم، وهو ابن الجزري. وأما السلمي وابن الجوزي فقد أتبعا ذكر عنوان الكتاب بذكر أقسامه. وأما ابن حجر فقد أتبعه بذكر مقدمة الكتاب الأصل الذي اختصره. وأما ابن مخلوف وهو آخرهم زمنًا فقد أتبع ذكر عنوان كتابه بمبررات التأليف.

من ذلك يتبين أن عنوان الكتاب لم يكن له مكان مقنن في مقدمة الكتاب، كما تبين أيضًا أنه لم توجد منهجية محددة لما يكتب قبل عنوان الكتاب أو بعده، وإنما الأمر راجع إلى اختيار مؤلف الكتاب نفسه.

١١) دلالات الرموز والمختصرات

نظرًا لطبيعة كتب التراجم التي تتسم بكثرة الرجال المترجم لها، وبكثرة الكتب التي ذكرت هؤلاء الرجال. فقد كَثُر استخدام هذه الكتب لبعض الرموز والمختصرات، الأمر الذي ظهرت معه الحاجة لتوضيح دلالات هذه الرموز والمختصرات، ومن ثم فقد أوضح ١٤,٢٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة دلالات المختصرات التي استخدموها في ثنايا مقدماتهم. هذه الكتب هي: "أُسد الغابة"، و"الكاشف"، و"المُغني"، و"ميزان الاعتدال"، و"نهاية الدرايات"، و"تهذيب التهذيب".

أول من أوضح دلالات الرموز والمختصرات ابن الأثير، فقال: "**إني جمعت بين هذه الكتب كما ذكرته من قبل، وعلَّمت على الاسم علامة ابن منده صورة د، وعلامة أبي نعيم صورة ع، وعلامة ابن عبد البر صورة ب، وعلامة أبي موسى صورة س، فإن كان الاسم عند الجميع علمت عليه جميع العلائم، وإن كان عند بعضهم علمت عليه علامته**". ثم أوضح أيضًا دلالات المختصرات التي استخدمها، بقوله: "**وإن قلت أخرجه الثلاثة فأعني ابن منده وأبا نعيم وأبا عمر بن عبد البر، فإن العلائم ربما تسقط من الكتابة وتنسى.**

وأما الذهبي فيبدو أن شَرْحَ الرموز والمختصرات وذِكْر مدلولاتها منهجية متأصلة عنده، ففي كتبه الأربعة محل الدراسة تجده قد أوضح دلالات الرموز والمختصرات التي استخدمها؛ ففي كتابه "الكاشف" يذكر أنه يضع هذه الرموز فوق اسم الرجل الذي ترجم له، ثم يوضح دلالات هذه الرموز بقوله: "**خ: البخاري، وم: لمسلم، ود: لأبي داود، وت: للترمذي، و س: للنسائي، وق: لابن ماجه، فإن اتفقوا فالرمز: ع، وإن اتفق أرباب السنن الأربعة فالرمز: ع**"، ويذكر الرمز نفسه بالدلالات نفسها - باستثناء السنن الأربعة: عه - في ثنايا مقدمة "الضعفاء". وأما في مقدمة كتابه الثالث "ميزان الاعتدال" وقد علَّم تلامذته وقراءه دلالات الرموز التي يستخدمها، فيشير إلى هذه الرموز بقوله: "ورمزت

على اسم الرجل من أخرج له في كتابه من الأئمة الستة: البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي وابن ماجة برموزهم السائرة" أي: برموزهم المعروفة والمشهورة والتي كثيرًا ما ذكر دلالاتها في كتبه من قبل، كما تم إيضاحه في كتابيه "الكاشف"و"المُغني". وأما كتابه الرابع وهو كتاب "التهذيب" فقد أوضح ابن حجر عند تهذيبه له دلالات الرموز والمختصرات التي استخدمها الذهبي في كتابه الأصل "التهذيب"، بقوله: **"وقد ذكر المؤلف: (أي: الذهبي في كتابه الأصل) الرقوم، فقال للستة (ع) وللأربعة (٤) وللبخاري (خ) ولمسلم (م) ولأبي داود (د) وللترمذي (ت) وللنسائي (س) ولابن ماجه (ق)..."**، مما سبق يُستنتج أن شرح دلالات الرموز والمختصرات في ثنايا المقدمة ـ منهج ثابت عند الذهبي.

كذلك أوضح ابن الجزري دلالات الرموز التي استخدمها، بقوله: **"ثم إني رمزت لما هو في الكتب المشهورة من كتب القراءات، فلما كان مذكورًا في كتابي "النشر" "ن"، ولما في كتاب التيسير "ت" وكتاب جامع البيان للداني "ج"، وكتاب الكامل للهذلي"ك"... ولهؤلاء الجماعة "ع"**.

يُلاحظ مما سبق عرضه فيما يلي:

١- بدأ شرح دلالات الرموز والمختصرات في منتصف القرن السابع الهجري وتوقف عند منتصف القرن التاسع الهجري؛ فآخر من أشار إليها هو الجزري (ت٨٣٣هـ) ولعل سبب ذلك راجع إلى اشتهار دلالات هذه الرموز والمختصرات، والثبات النوعي في استخداماتها. فلم يعد القراء في حاجة إلى توضيح دلالاتها.

٢- الرموز والمختصرات المستخدمة تشير فقط إلى "كتب" فلم تظهر مختصرات مثلاً تبين الحكم على الرجل محل الترجمة؛ من حيث كونه ثقة، أو ضعيفًا، أو لين الحديث، أو يوهم أو غير ذلك، كذلك لم تُستَخدم رموز أو مختصرات للإشارة إلى تواريخ الوفاة، فلم يستخدم مثلاً ق ٦ هـ للدلالة على وفاة الرجل في القرن السادس الهجري، ولعل ذلك راجع إلى الكثرة المفرطة في استخدام تلك الكتب، مما حتم استخدام رموز ومختصرات لها.

١٢) المجتمع الموجه له الكتاب

كان مؤلفو كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ يضعون في أذهانهم المجتمع الموجهة له كتبهم، وكانوا أحيانًا يشيرون إلى ذلك المجتمع في ثنايا مقدماتهم، فقد أشار ٩,٥٪ من كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ إلى المجتمع الموجهة له كتبهم، وهذه الكتب هي:

"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الفقهاء"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"المُغني". وأول من أشار لذلك هو القشيري (٤٦٥هـ)، بقوله: "**هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله عبد الكريم ابن هوازن القشيري إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام**". تلاه الشيرازي في القرن نفسه (ت٤٧٦هـ)، بقوله: "**لا يسع الفقيه جهله لحاجته إليه في معرفة من يعتبر قوله في انعقاد الإجماع ويعتد به في الخلاف**"، وهو بذلك حدد المجتمع الموجه له الكتاب وهم الفقهاء، كما حدد أيضًا أوجه إفادتهم منه بقوله: "**معرفة من يعتبر قوله في انعقاد الإجماع ويعتد به في الخلاف**". كما أشار النووي إلى المجتمع الذي يوجه له الكتاب، بقوله: "**يُنتَفع بها في تفسير القرآن والحديث وجميع الكتب المصنفات**" وكأنه هنا يشير إلى أن كتابه يفيد جميع المؤلفين عامة، ويفيد مفسري القرآن وشراح الحديث النبوي على وجه الخصوص. وأما الذهبي فقد أشار بوضوح إلى المجتمع الموجه له كتابه "المغني" في أول مقدمته بقوله: "**تيسيرًا على طلبة العلم المعتنين بالحديث في معرفة الضعفاء**" فقد حدد المجتمع بوضوح بقوله: "**طلبة العلم المعتنين بالحديث**" وليس بمجال الحديث كله، وإنما الراغبين في معرفة الضعفاء .

وهكذا، فقد توافر لدينا أربعة نماذج لمؤلفي كتب التراجم أشارت إلى المجتمع الموجه له الكتاب بوضوح ودقة.

١٣) عدد المداخل

أشار ٧٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة إلى عدد المداخل التي احتوتها كتبهم، هذه الكتب هي: "ترتيب المدارك"، و"صفة الصفوة"، و"طبقات المدلسين"، وأول من أشار لذلك هو القاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، بقوله: "**اقتصرنا في هذه الورقات على ذكر ألف اسم ممن عرف اسمه وصحت روايته وشهرت صحبته**" ثم أوضح سبب تغطية هذا العدد من المداخل، بقوله "**ورأينا أن لا نخلي هذا الديوان من هذا القدر لتتم به فوائده، وتكمل في فنه معارفه**"، بعده بخمسين عامًا تقريبًا ذكر ابن الجوزي عدد مداخل كتابه وفصّل في ذلك، بقوله: "**فقد زاد عدد مَن في كتابنا على ألف شخص**"، ثم أوضح عدد الرجال الذين ترجم لهم، وعدد النساء، بقوله: "**يزيد الرجال على ثمانمائة زيادة بينة، وتزيد النساء على مائتين زيادة كثيرة**"، ثم يقارن عدد مداخله بعدد المداخل في كتاب "حلية الأولياء" ويقول: "**ولم يبلغ عدد رجال "الحلية" الذي ذكرت أحوالهم في تراجمهم ستمائة، ولا أظنه ذكر في جميع الكتاب عشرين امرأة**". وأما ابن حجر الذي جاء بعد ذلك بأكثر من قرنين ونصف فقد ذكر كذلك عدد مداخل كتابه "طبقات المدلسين"، بقوله: "**فجملة ما في كتابي هذا مائة واثنان وخمسون نفسًا**" ذكر ذلك

العدد بعدما ذكر عدد المداخل في عدة كتب في المجال نفسه، حينما قال: "فجميع ما في كتاب العلائي من الأسماء ثمانية وستون نفسًا، وزاد عليهم بن العراقي ثلاثة عشر نفساً، وزاد عليه الحلبي اثنين وثلاثين نفسًا، وزدت عليها تسعة وثلاثين نفسًا".

وذِكْرُ المؤلف لعدد مداخل كتابه في ثنايا مقدمته يعطي صورة واضحة للقارئ عن حجم الكتاب وكثافة تغطيته، مما يعني وضوح المؤلف وتقديره للقارئ، كما أنه أيضًا وسيلة إلى حفظ الكتاب من العبث والضياع.

١٤) موقع الكتاب بين نظرائه

حرص قرابة ٥٪ من مؤلفي كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ على ذكر موقع كتابهم بين نظرائه من الكتب في المجال نفسه، هذه الكتب هي: "رجال الطوسي"، و"صفة الصفوة"، فكانت أول إشارة لذلك في القرن الخامس الهجري حينما ذكر الطوسي (ت٤٦٠هـ) موقع كتابه بين نظرائه، وذلك في معرض حديث عن الدراسات السابقة، فقد قارن كتابه بكتاب غيره ليتبين الفارق بينهما وليتضح قدر كتابه، فقال: "ولم أجد لأصحابنا كتابًا جامعًا في هذا المعنى إلا مختصرات، قد ذكر كل إنسان منهم طرفًا، إلا ما ذكره ابن عقدة من رجال الصادق، فإنه قد بلغ الغاية في ذلك، ولم يذكر رجال باقي الأئمة، وأنا أذكر ما ذكره، وأُورد من بعد ذلك من لم يذكره" بهذه الجملة الأخيرة: "وأنا أذكر ما ذكره، وأُورد من بعد ذلك من لم يذكره" أَوْضَحَ قدر كتابه وما تميز به عن كتاب ابن عقدة، وأوضح كذلك ابن الجوزي موقع كتابه مقارنة بكتاب "حلية الأولياء"، بعدما ذكر عشرة أشياء كدرت صفو "الحلية"، أتبعها بثلاثة أشياء فاتت الإصبهاني، قال بعدها: "... أن أجمع كتابًا يغنيك عنه. أي كتاب "حلية الأولياء"- ويحصل لك المقصود منه، ويزيد عليه بذكر جماعة لم يذكرهم، وأخبار لم ينقلها" بهذا أوضح قدر كتابه حينما عقد مقارنة بينه وبين أشهر كتاب في المجال نفسه وهو كتاب "حلية الأولياء".

١٥) اسم مؤلف الكتاب

ورد ذِكْرُ اسم مؤلف الكتاب في ثنايا اثنتين وعشرين مقدمة بما يساوي ٥٢,٣٪ من كتب التراجم محل الدراسة، انقسمت هذه المقدمات إلى قسمين، فالقسم الأول: ذَكَرَ اسمَ المؤلفِ المؤلفُ نفسُه، وذلك في أربع كتب، هي: "الرسالة القشيرية"، و"الكاشف"، و"تاج التراجم"، و"شجرة النور". أما القسم الثاني: ذكر اسمَ المؤلف أحدُ طلابه الذين تلقوا كتابه، وعددهم سبعة عشر كتابًا، هي: "التاريخ الصغير"، و"الجرح والتعديل"، و"الثقات" لابن حبان، و"المعجم الصغير"، "الثقات" لابن شاهين، و"حلية الأولياء".

و"معرفة الصحابة"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"الاستيعاب"، ورجال البخاري، و"طبقات الحنابلة"، و"صفة الصفوة"، و"أُسد الغابة"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"نهاية الداريات"، "الإصابة"، "لحظ الألحاظ".

وأول من ذكر اسمه في مقدمة كتابه القشيري (ت٤٦٥هـ)، وذلك في أول المقدمة المنهجية بعد الديباجة مباشرة، حينما قال: "**هذه الرسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيري**". كذلك ذكر الذهبي اسمه بعد الديباجة مباشرة في أول المقدمة المنهجية لكتابه "الكاشف"وذلك بقوله: "**يقول محمد بن أحمد بن الذهبي، سامحه الله تعالى ...**". ومثله ذكر ابن قطلوبغا اسمه: "**فيقول العبد الضعيف قاسم بن قطلوبغا الحنفي...**" وآخرهم ابن مخلوف، حينما قال: "فيقول راقم هاته الحروف، الواجل من اليوم المخوف، عبده: محمد بن محمد مخلوف..."

يُلاحظ على هذه الكتب الأربعة التي ذكر المؤلفُ اسمَه بنفسه ما يلي:

١- استخدام الفعل المضارع: "يقول" قبل اسم المؤلف.

٢- ذكر المؤلف لاسمه في أول المقدمة المنهجية بعد الديباجة مباشرة.

٣- استخدام ألقاب تدل على التواضع تسبق اسم المؤلف، مثل: "الفقير إلى الله تعالي"، ومثل "العبد الضعيف"، ومثل "الواجل من اليوم المخوف، عبده..." وهكذا.

وأما القسم الثاني الذي ذكر اسمَ المؤلف أحدُ طلابه - سار على منهجين: الأول: وفيه ذُكر اسمُ المؤلف بعد ديباجة مختصرة من صنع الطالب، كما في مقدمات كلٍ من: "التاريخ الصغير"، و"الجرح والتعديل"، و"الثقات" لابن حبان، و"المعجم الصغير"، و"الثقات" لابن شاهين، و"معرفة الصحابة"، و"رجال البخاري"، و"طبقات الحنابلة"، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، "لحظ الألحاظ"، ومجموعها عشر مقدمات.

على سبيل المثال ما ورد في مقدمة "التاريخ الصغير"؛ إذ ذكر أحد طلابه ديباجة مختصرة، ثم ذكر سند تلقيه للكتاب الذي انتهى بذكر اسم المؤلف، كما يلي: "**بسم الله الرحمن الرحيم، رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخبرنا أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الحافظ، قال أخبرنا أبوعلي زاهر بن أحمد الفقيه السرخسي...، قال أخبرنا أبو محمد زنجويه بن محمد النيسابوري، قال حدثنا محمد ابن إسماعيل البخاري**".

ومثله ما ورد في مقدمة كتاب "الجرح والتعديل"، إلا أن الطالب هنا لم يذكر سند

تلقيه للكتاب - ربما لأنه تلقى الكتاب مباشرة من مؤلفه - وإنما ذكر اسم المؤلف بعد ديباجة مختصرة، كما يلي: "**بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، رب يسر وأتمم، وبه ثقتي وعليه اعتمادي وتكلاني، يا كريم يا رحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي التميمي رحمة الله تعالى عليه...**".

ومثله كان في كتاب "الثقات" لابن حبان؛ إذ ذكر اسمَ الشيخ المؤلف بعد ديباجة مختصرة، بقوله: "**بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا، قال أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي الحمد لله...**"، وهكذا في باقي المقدمات العشر؛ إذ ذكر الطلاب أسماء شيوخهم المؤلفين في أول مقدمة الكتاب، بعد ذكر ديباجة مختصرة.

وأما المنهجية الثانية، فتمثلت في: **ذكر اسم المؤلف في أول المقدمة بعد بسملة فقط**، اتبع هذه المنهجية مقدمات كل من: "حلية الأولياء"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"الاستيعاب"، و"صفة الصفوة"، و"أُسد الغابة"، و"نهاية الدرايات"، و"الإصابة"، و"ذيل تذكرة الحفاظ" (لم تُكتب فيه البسملة قبل اسم المؤلف)، ومجموعها ثماني مقدمات. على سبيل المثال ما ورد في مقدمة كتاب "حلية الأولياء": "**بسم الله الرحمن الرحيم، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن مهران الإصبهاني رحمه الله....**". ومثله ما ورد بمقدمة "الاستيعاب": "**بسم الله الرحمن الرحيم، قال الفقيه أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري - رضي الله عنه - الفقيه الحافظ الأندلسي رحمه الله...**". ومثله ما ورد في مقدمة "أُسد الغابة": "**بسم الله الرحمن الرحيم، قال الشيخ الإمام الحافظ البارع الأوحد بقية السلف عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير رضي الله عنه...**" وهكذا في باقي المقدمات الثمانية، باستثناء مقدمة "ذيل تذكرة الحفاظ" التي لم تُكتب فيها البسملة قبل اسم المؤلف.

يُلاحَظ على هذه المقدمات الثمانية - فيما يخص ذكر اسم المؤلف - ما يلي:

١- استخدام الفعل الماضي، مثل: "أخبرنا"، "حدثنا"، "قال".

٢- اقتران اسم الشيخ بألقاب التوقير والتعظيم والتبجيل، مثل: الشيخ، الإمام، الحافظ، الأجل، السيد، الأوحد، زين الدين، عماد الإسلام، فخر السنة، مجد الأئمة،

ثقة الأمة، سيد الحفاظ، العالم، القارئ، العامل، الزاهد، المُحَدِّث ... إلخ، ثم يتبع اسم المؤلف بالدعاء له، بمثل: رحمه الله، رحمة الله تعالى عليه، رضي الله عنه وغيرها.

يضاف إلى ما سبق أن مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة كانوا على وعي بأهمية ذكر اسم المؤلف في المقدمة، لتحقيق نسبة العمل لصاحبه، وتحديد مدى الثقة في المعلومات التي يقدمها، إضافة إلى الحفاظ على هوية الكتاب الذي كان بعضه في تلك الفترة يخلو من صفحة العنوان، أو معرض لفقدها بسبب عدم إحكام تجليد الكتاب أو استهلاكها الناتج عن كثرة استخدام الكتاب، ولا شك أن الكتب التي ذكر اسم مؤلفها في المقدمة حافظت على هويتها أكثر، ولو توافر ذلك في كل كتب التراث لما ضاعت هوية بعضها أو تحير المحققون والمفهرسون في معرفة هويتها.

١٦) تاريخ تأليف الكتاب

لم يَرِد ذِكْرُ تاريخ تأليف الكتاب في ثنايا المقدمة إلا في كتاب "الرسالة القشيرية" حينما ذكره بقوله: "**هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيري إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام، في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة**"، ولعل انفراد القشيري بذكر تاريخ تأليفه للكتاب يرجع إلى كون الكتاب عبارة عن "رسالة" مرسلة إلى جماعة الصوفية؛ مما حدا به لذكر تاريخ كتابة تلك الرسالة. وهو بذلك يضفي نوعًا أكبر من المصداقية عند من يوجه لهم رسالته.

وهكذا، عَرضت مقدمات كتب التراجم محل الدراسة للعناصر المنهجية، وهي بذلك تشبه - إلى حد كبير - المقدمات المنهجية في الأبحاث العلمية والرسائل الأكاديمية، ويمكن إجمال هذه العناصر ونسبة ورودها في مقدمات كتب التراجم محل الدراسة من خلال الجدول التالي:

"تكرار ورود العناصر المنهجية في مقدمات كتب التراجم"

العنصر المنهجي	التكرار في مقدمات كتب التراجم	
	العدد	النسبة المئوية
المجال والحدود	٤٠	٩٥,٢
منهج المؤلف	٢٧	٦٤,٢
مبررات التأليف	٢٤	٥٧
اسم المؤلف	٢٢	٥٢,٣
مدخل تمهيدي	١٩	٤٥,٢
دراسات سابقة	١٨	٤٢,٨
نظام الترتيب	١٨	٤٢,٨
تقسيم الكتاب	١٦	٣٨
المادة المرجعية	١٦	٣٨
مصادر الكتاب	١٤	٣٣,٣
عنوان الكتاب	٧	١٦,٦
مدلولات المختصرات	٦	١٤,٢
المجتمع الموجه له	٤	٩,٥
عدد المداخل	٣	٧
الكتاب بين نظرائه	٢	٤,٧
تاريخ التأليف	١	٢,٣

من هذا الجدول يتضح أن أكثر من نصف المقدمات ـ محل الدراسة ـ اهتم بذكر: المجال ومجال تغطية كتابه وحدوده، ومنهج المؤلف، ومبررات التأليف، واسم المؤلف، وأن أكثر من ثلث المقدمات ـ محل الدراسة ـ اهتم بذكر: المدخل التمهيدي، والدراسات السابقة، ونظام ترتيب الكتاب، والمادة المرجعية التي يقدمها، ومصادر الكتاب، بينما ذكر أقل من ربع المقدمات ـ محل الدراسة ـ: عنوان الكتاب، ومدلولات المختصرات، والمجتمع الموجه له الكتاب، وعدد مداخله، وموقع الكتاب بين نظرائه، وتاريخ تأليف الكتاب.

(٣) خاتمة مقدمات كتب التراجم

الجزء الثالث من جسم مقدمات كتب التراجم هو "الخاتمة"، وبها ختم المؤلف مقدمة كتابه بمجموعة من العناصر كالدعاء، والتماس العذر من القارئ، والصلاة

والسلام على النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. بعض هذه المقدمات خلت من الخاتمة وبعضها اشتمل عليها كما هو موضح فيما يلي:

أولاً: المقدمات التي خلت من خاتمة

خلت عشر مقدمات لكتب التراجم محل الدراسة ـ بما يمثل ٢٣,٨٪ من المقدمات محل الدراسة ـ من خاتمة للمقدمة، هذه الكتب، هي: "التاريخ الصغير"، و"الجرح والتعديل"، و"مشاهير علماء الأمصار"، و"المعجم الصغير"، و"حلية الأولياء"، و"طبقات الفقهاء الشافعية"، و"رجال البخاري"، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"لسان الميزان"، و"الطبقات الكبرى".

ولم يكن هناك أسلوب مقنن لإنهاء هذه المقدمات العشرة؛ إذ انتهت كل منها بشكل مختلف؛ فمقدمة "التاريخ الصغير" انتهت بعرض المؤلف لمادته المرجعية، ومقدمة "الجرح والتعديل" انتقل المؤلف فيها من الديباجة إلى مقال تقديمي شمل مرتبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعرفة السنة وأئمتها، والتمييز بين الرواة، وطبقات الرواة وغيرها، وفعل مثله السبكي، وأما مقدمتا "مشاهير علماء الأمصار"، و"طبقات الفقهاء الشافعية" فانتهتا بذكر المؤلف لمجال تغطية الكتاب، بينما انتهت مقدمة كل من "المعجم الصغير"، و"رجال البخاري" بعرض المؤلف لنظام ترتيب الكتاب، وانتهت مقدمة "حلية الأولياء" بذكر المؤلف لمبررات بدء الكتاب بذكر صحابة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأما ابن حجر فبعد أن ذكر عنوان كتابه "لسان الميزان" عرض مقدمة الكتاب الأصل الذي اختصره، وهو"ميزان الاعتدال"، بينما وصلت مقدمة كتاب "الطبقات الكبرى" مبتورة، ومن ثم لم يستطع الباحث تحديد كيف أنهى المؤلف مقدمته.

هذه المقدمات العشرة شرعت بعد ذلك في عرض متن الكتاب، ومن ثم لم تكن لها خاتمة بالمفهوم المنهجي لخواتيم مقدمات كتب التراجم.

ثانيًا: المقدمات التي خُتمت بخاتمة

أما المقدمات الاثنتان والثلاثون الباقية فقد خُتمت بخاتمة واضحة؛ اشتملت على مجموعة من العناصر اختلفت من مقدمة لأخرى؛ هذه العناصر الختامية هي: الدعاء لله تعالى، والثناء على الله عز وجل، والتوكل على الله والاعتماد عليه والاستعانة به، ورد التوفيق لله تعالى، والتماس العذر من القارئ، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله وصحبه، وتهيئة القارئ لانتهاء المقدمة والشروع في الكتاب، وحمد الله تعالى، والسلام، كما هو موضح فيما يلي:

١) الدعاء لله تعالى

اشتملت خاتمة إحدى وعشرين مقدمة على "الدعاء لله تعالى"، بما يمثل نصف المقدمات محل الدراسة، وهذه الكتب هي: "الثقات" لابن حبان، و"طبقات الصوفية"، و"معرفة الصحابة"، و"رجال الطوسي"، و"الاستيعاب"، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الفقهاء"، و"طبقات الحنابلة"، و"ترتيب المدارك"، و"صفة الصفوة"، و"أُسد الغابة"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"ميزان الاعتدال"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"الإصابة"، و"لحظ الألحاظ"، و"تاج التراجم"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور".

اختلف الدعاء من مقدمة لأخرى فبعضهم دعا بالجنة، وبعضهم دعا بالأجر والجزاء، وآخرون دعوا بالنفع بالكتاب، وآخرون دعوا لمن ترجموا لهم، وبعضهم دعا بغير ذلك، كما هو موضح فيما يلي.

أ) الدعاء بالجنة

اشتملت خاتمة ست مقدمات على الدعاء "بالجنة"، هذه المقدمات هي: "صفة الصفوة"، و"أُسد الغابة"، "تهذيب الأسماء واللغات"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"لحظ الألحاظ"، و"تاج التراجم"؛ على سبيل المثال ما دعا به ابن الجوزي: "**واللحوق بدرجات أهل اليقين**"، وما دعا به ابن الأثير: "**وأن يحسن منقلبنا إلى دار السلام**".

ب) الدعاء بالمثوبة والأجر والجزاء

اشتملت خاتمة ست مقدمات أخرى على الدعاء "بالمثوبة والأجر والجزاء"، هذه الكتب هي: "الرسالة القشيرية"، و"طبقات الفقهاء"، و"ترتيب المدارك"، "الإصابة"، و"الطبقات السنية"، و"شجرة النور". على سبيل المثال ما دعا به القشيري: "**ومن الكريم فضلاً ومثوبة**"، وما دعا به الشيرازي: "**ويجزل لي الأجر والثواب**".

ج) الدعاء بالنفع بالكتاب

اشتملت ست مقدمات كذلك على "الدعاء بالنفع بالكتاب"، هذه المقدمات هي: "معرفة الصحابة"، و"صفة الصفوة"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، "طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"الطبقات الكبرى". على سبيل المثال ما دعا به الإصبهاني: "**نسأل الله نفعه**"، وما دعا به ابن رجب: "**والله المسئول أن ينفع به في الدنيا والآخرة**".

د) الدعاء بالعون

دعا ستة مؤلفين في خاتمة مقدمات كتبهم "بالعون"، وهم: السلمي، والأصبهاني، والطوسي، والقشيري، وابن أبي يعلى، على سبيل المثال ما دعا به السلمي: "وسألته أن يعينني عليه"، وكذلك ما دعا الإصبهاني في كتابه "معرفة الصحابة": "نسأل الله... والمعونة عليه".

هـ) الدعاء بحسن النية

دعا القاضي عياض، والنووي، وابن حجر، وابن مخلوف - في خاتمة مقدمات كتبهم "بحسن النية"، على سبيل المثال ما دعا به القاضي عياض: "وأن يحسن فيه النية"، وما دعا به النووي: "أسأله التوفيق لحسن النية".

و) الدعاء بالتوفيق

وأما السلمي، والإصبهاني في "معرفة الصحابة"، والشيرازي، والذهبي في "المُغني" - فقد دعوا الله "بالتوفيق"؛ على سبيل المثال ما دعا به السلمي: "وسألته... ويوفقني له"، ومثله دعا الإصبهاني: " "نسأل الله... والتوفيق فيه".

ز) الدعاء بالمغفرة

ودعا "بالمغفرة " كل من القشيري، والنووي، والهاشمي، على سبيل المثال ما دعا به الهاشمي: "ويغفر لي الآثام"، وما دعا به النووي: "أسأله... مغفرة ما ظلمت نفسي به من المخالفات".

ح) الدعاء بالإعانة على إكمال الكتاب

دعا "بالإعانة على إكمال الكتاب" كلٌ من: النووي، وابن حجر في "الإصابة"، وابن قطلوبغا؛ على سبيل المثال ما دعا به ابن حجر: "والله تعالى أسأل أن يعين على إكماله"، كذلك ما دعا به الهاشمي: "والله سبحانه وتعالى أسأل المعونة والإتمام". ولعل هذا يعني أن مؤلفي هذه الكتب الثلاثة شرعوا في كتابة مقدمات كتبهم قبل إكمال تأليفها.

ط) الدعاء بالهداية إلى الطاعات

دعا الطوسي، والنووي - بـ"الهداية إلى الطاعات"؛ فدعا الطوسي: "ومن الله أستمد المعونة لكل ما يقرب من طاعته"، ودعا النووي: "أسأله التوفيق... وتيسير أنواع الطاعات والهداية لها دائمًا في ازدياد حتى الممات".

ي) الدعاء بالستر في الدنيا

انفرد ابن حبان في مقدمة كتابه "الثقات" بالدعاء "بالستر في الدنيا"، بقوله: "جعلنا الله ممن أسبل عليه جلابيب الستر في الدنيا".

ك) الدعاء بالعفو

كما انفرد ابن حبان أيضاً في مقدمة نفس الكتاب بالدعاء "بالعفو" فدعا: "بالعفو عن جناياته في العقبى".

ل) الدعاء بالعصمة من الخطأ

وانفرد القشيري بالدعاء بـ "العصمة من الخطأ"، بقوله: "واستعصمه من الخطأ"، وهو دعاء غريب إلى حد ما، ولعله من الأدعية المشهورة عند الصوفية؛ فالقشيري مشهور بتصوفه كما هو واضح من مقدمة كتابه، محل الدراسة.

م) الدعاء بالنجاة من النار

وانفرد الهاشمي بالدعاء بـ "النجاة من النار"، بقوله: "ويعيذني من النار".

ن) الدعاء بحسن الخاتمة:

وانفرد ابن قطلوبغا بالدعاء بـ "حسن الخاتمة"، بقوله: "والله سبحانه وتعالى أسأل أن يختم لي وله بخواتيم السعادة"، ويدعو ابن قطلوبغا في هذا الدعاء لنفسه ولشيخه شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي - الذي كان على قيد الحياة وقتها - بحسن الخاتمة.

س) الدعاء لمن ترجم لهم

وانفرد الأسنوي بالدعاء "لمن ترجم لهم بأن يرضى الله عنهم ويدخلهم الجنة"، بقوله: "رضي الله عنهم أجمعين وحشرنا وإياهم في مستقر رحمته ودار كرامته".

وهكذا، جعل مؤلفو كتب التراجم خاتمة مقدمات كتبهم مكانًا للتضرع إلى الله ودعائه بأدعية متنوعة؛ ما بين طلب للجنة، والنجاة من النار، وحسن الخاتمة، والمغفرة، والعفو، والستر في الدنيا، والإعانة، والتوفيق، وحتى الدعاء لمن ترجموا لهم، رحمهم الله جميعًا.

٢) الثناء على الله تعالى

كما اشتملت خاتمة مقدمات كتب التراجم - محل الدراسة - على الدعاء لله، عز

وجل، فقد اشتملت كذلك على الثناء على الله تعالى، فاختتمت ست عشرة مقدمة - بما يساوي ٧٦٪ من المقدمات التي اختتمها مؤلفوها بالدعاء، ويساوي ٥٠٪ من المقدمات التي كانت لها خاتمة، ويمثل ٣٨٪ من المقدمات محل الدراسة - هذه الكتب هي: الجرح والتعديل، و"معرفة الصحابة"، و"رجال الطوسي"، و"الاستيعاب"، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات الفقهاء"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"صفة الصفوة"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"طبقات الشافعية" للأسنوي، و"الذيل على طبقات الحنابلة"، و"طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة، و"لحظ الألحاظ"، و"تاج التراجم"، و"طبقات المفسرين"، و"الطبقات السنية".

ختم هؤلاء المؤلفون كتبهم - أو بالأحرى دعاءهم - بالثناء على الله عز وجل، لأن الثناء على الله تعالى من الآداب المستحبة عند الدعاء، يؤيد ذلك حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - "إِذَا صَلَّى (أي: إذا دعا) أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ"، ٥٨ لذا، حرص ثلاثة أرباع المؤلفين الذين دعوا الله في خاتمة مقدماتهم على الثناء على الله عز وجل كلٌ بما فتح الله عليه، على سبيل المثال ما ذكره الطوسي: "**إنه ولي ذلك والقادر عليه**"، وما ذكر ابن عبد البر: "**وهو حسبي عليه توكلت وإليه أنيب**"، وما ذكره القشيري: "**وهو بالفضل جدير، وعلى ما يشاء قدير**"، وما ذكره الشيرازي: "**إنه كريم وهاب**"، وأما النووي فقد أطال الثناء على الله تعالى، بقوله: "**إنه سميع الدعوات، جزيل العطيات، اعتصمت بالله، توكلت على الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**" وهكذا أثنى المؤلفون على ربهم بما فتح الله عليهم من كلمات أو جُمل.

٣) التوكل على الله والاعتماد عليه والاستعانة به

خُتمت أربع عشرة مقدمة - بما يساوي ٤٤٪ من المقدمات التي كانت لها خاتمة، و٣٣٪ من المقدمات محل الدراسة - بإعلان مؤلفيها توكلهم على الله - عز وجل - والاعتماد عليه والاستعانة به، هذه المقدمات هي: "الثقات" لابن شاهين، و"الرسالة القشيرية"، و"طبقات فقهاء اليمن"، و"تهذيب الأسماء واللغات"، و"الكاشف"، و"المُغني"، و"ميزان الاعتدال"، و"ذيل تذكرة الحفاظ"، و"طبقات الأولياء"، و"نهاية الدرايات"، "لسان الميزان"، "لحظ الألحاظ"، و"طبقات المفسرين"، و"شجرة النور". على سبيل المثال ما ذكره ابن شاهين: "وعليه نتوكل" وبأسلوب آخر قال ابن عبد البر في الاستيعاب: "وهو حسبي عليه توكلت وإليه أنيب"، وقريبًا منه ذكر الذهبي في "الكاشف": "وعلى الله

اعتمد،وإليه أنيب"، وقريبًا من تلك العبارات أعلن مؤلفو كتب التراجم في خاتمة مقدماتهم توكلهم على الله والاستناد إليه والاعتماد عليه.

٤) رد التوفيق إلى الله تعالى

اعترافًا بالفضل لله ـ عز وجل ـ رد خمس مقدمات ـ بما يساوي ١٥,٦٪ من مؤلفي المقدمات التي كانت لها خاتمة، و١٢٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة ـ التوفيق إلى الله تعالى، هؤلاء المؤلفون هم: الجعدي، وابن الأثير، والنووي، والذهبي في "ميزان الاعتدال"، وابن حجر في "تهذيب التهذيب". واختلفت الألفاظ التي عبر بها كل مؤلف عن ذلك؛ فقال الجعدي: "**وما توفيقي إلا بالله**"، وقال النووي: "**واستمدادي في ذلك وفي غيره من أموري التوفيق والكفاية والإعانة والصيانة والهداية من الله الكريم الوهاب اللطيف الحكيم التواب**". فزاد النووي بذلك ألفاظ الثناء بعد رد التوفيق إلى الله تعالى، وأما الذهبي وابن حجر فذكرا ذلك بكلمتين "**والله الموفق**".

٥) التماس العذر من القارئ

انطلاقًا من قول القائل: "مَن صنف قد استُهدف"؛ لذا نجد أن خمس مقدمات ـ بما يساوي ١٥,٦٪ من مؤلفي كتب التراجم التي كانت لمقدماتهم خاتمة ، ويمثل ١٢٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة ـ قد حاولت التماس العذر من القارئ إن وجد نقصًا أو خللاً؛ فبعضهم يشير إلى أنه قد بذل ما يستطيع من جهد، مثل الذهبي في "المُغني" الذي يقول: "وهذا مبلغ ما عندي ولا آلو جهدي". وبعضهم مثل القاضي عياض يطلب من القارئ أن يحسن الظن بالمؤلف، ولا يبادر بالطعن حتى يتأكد من وجود الخلل، فيقول: "وجدير لمطالعه أن يحسن الظن، ولا يبادر إلى بالطعن حتى يجيل النظر ويحقق ما أنكر". ويزيد على ذلك كل من القاضي عياض وابن مخلوف بدعوة القارئ إلى إصلاح ذلك الخلل إن وجده وتيقن منه، فيقول القاضي عياض: "فإن تيقن بعدُ زلة أصلحها أو وجد مبهمة أوضحها"، وقريبًا منه يقول ابن مخلوف: "**فالمرجو ممن وقف عليه وسرح ألحاظه، أن يسامح نسيجه ولا ينتقد ألفاظه وأن يصلح ما يجد من الخلل**"، ويزيد ابن الأثير على ذلك بالدعاء بالرحمة لمن وجد خللاً في كتابه وأصلحه، فيقول: "**فرحم الله امرأ أصلح فاسده**". ويوضح القاضي عياض مبررات التماس الأعذار للمؤلفين بقوله: "**فالغالب على المرء التقصير**"، ومن ثم يحسن الظن بالمؤلف ويلتمس له الأعذار ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

٦) الصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم

ختم خمس مقدمات ـ بما يساوي ١٥,٦٪ من مؤلفي كتب التراجم التي كانت لمقدماتها خاتمة، ويمثل ١٢٪ من مؤلفي كتب التراجم محل الدراسة ـ خاتمة مقدمات كتبهم بالصلاة والسلام على النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الكتب هي: "ترتيب المدارك"، و"الكمال"، "لحظ الألحاظ"، و"شجرة النور"، فأما مؤلف"ترتيب المدارك" فقد جعلها آخر جملة في خاتمة مقدمته، بقوله: "**وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير**"، وكذلك فعل مؤلف"الكمال"، بقوله: "**سيدنا المصطفى محمد سيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وصلاة دائمة إلى يوم الدين**"، وأما مؤلف "لحظ الألحاظ" فأتبعها بالثناء على الله تعالى، بقوله: "**والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى المبعوث إلى جميع الأنام وعلى آله وذريته وأزواجه وأصحابه السادة الكرام ومن تبعهم بإحسان في سائر الليالي والأيام، وحسبنا الله وكفى ربنا الملك العلام**"، بينما أتبعها مؤلف "شجرة النور" بحمد الله تعالى بقوله: "**وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله رب العالمين**".

يُلاحَظ على صيغ الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم إتباعها بالصلاة على آله وأزواجه وأصحابه والتابعين، كما يُلاحَظ أيضًا ذكر ألقاب المدح والثناء على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

٧) تهيئة القارئ لانتهاء المقدمة والشروع في الكتاب

من المظاهر التي ظهرت في مقدمات كتب التراجم محل الدراسة ـ تهيئة المؤلف للقارئ لانتهاء مقدمة الكتاب، وتهيئته كذلك لقراءة متن الكتب؛ فاستخدم المؤلفون ألفاظ الثناء على الله ـ عز وجل ـ إعلامًا للقارئ بانتهاء المقدمة، على سبيل المثال ما قاله الجعدي: "**بعون ذي الجلال والإكرام**"، وكذلك ما قاله الطوسي: "**إنه ولي ذلك والقادر عليه**"، ومثله ما قاله: "**ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**"، وكذلك ما قاله ابن حجر في "الإصابة": "**إنه قريب مجيب**".

استخدم هؤلاء المؤلفون كذلك ألفاظًا تهيئ القارئ للشروع في قراءة الكتاب، بمثل قول النووي: "**وأقدم في أول الكتاب فصولاً تكون لمحصله قواعد وأصولا**"، ومثل قول الطوسي: "**وأول ما أبتدئ به الرجال الذين رووا عن النبي صلى الله عليه وسلم**". وأما الحسيني فقال: "**فأقول مستعينًا بالله تعالى**"، بينما قال الجعدي: "**فأقول وما توفيقي**

إلا بالله عليه توكلت وهو حسبي ونعم الوكيل".

بهذه التعبيرات هيأت خمس مقدمات ـ ٦, ١٥٪ من مؤلفي كتب التراجم التي كانت لمقدماتها خاتمة، وما يمثل ١٢٪ من مؤلفي كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ القراء لانتهاء المقدمة والشروع في قراءة الكتاب، وفي ذلك تهيئة نفسية القارئ.

٨) حمد الله تعالى

لم يرد هذا العنصر إلا في ختام مقدمة واحدة، وهي مقدمة "شجرة النور"، التي ورد في نهايتها: "**والحمد لله رب العالمين**" والمؤلف هنا يحمد الله تبارك وتعالى على نعمة تأليف الكتاب، ونعمة الانتهاء من كتابة مقدمته.

٩) السلام

لم يرد هذا العنصر كذلك إلا في ختام مقدمة واحدة، وهي مقدمة كتاب "أُسد الغابة"، التي ختمها مؤلفها بقوله "**والسلام**"، ولكن هل يعني ابن الأثير "بالسلام" اسمًا من أسماء الله الحسنى للتعبير عن رغبته في رؤية وجه الله تعالى في الجنة، وخاصة أنه دعا قبلها الله بالجنة ؟، أم يقصد "بالسلام" الأمن والأمان، أي أنه يدعو بالأمن والأمان بعد الموت ؟، أم أنه يقصد "بالسلام" السلام المستخدم عند مقابلة شخص لآخر أو مفارقته ؟ والذي يترجح أن المعنى الأخير هو الذي يقصده ابن الأثير، وقد ختم بها مقدمته لإعلام القارئ بانتهاء مقدمة الكتاب، وأنه سيفارقه هذا ليتركه مع الكتاب.

بهذا العنصر اكتملت العناصر التسعة التي اشتملت عليها خاتمة مقدمات كتب التراجم، محل الدراسة، كما ـ اخْتُتِمَت بحمد الله تعالى ـ الدراسة التحليلية لمقدمات كتب تراجم القطاع الديني.

خلاصة الدراسة

بعد هذه الدراسة التحليلية لمقدمات كتب تراجم القطاع الديني خلصت الدراسة إلى ما يلي:

(١) ما يتعلق بالمقدمة التي سبقت مقدمة المؤلف

بدأ ٣٠٪ من مقدمات كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ بمقدمة قصيرة لأحد الطلاب تسبق مقدمة المؤلف، شملت : ديباجة قصيرة، وسند وتاريخ تلقي الكتاب عن الشيخ، ألفاظًا تدل على السماع من الشيخ، ثم اسمَ الشيخ مصحوبًا بالألفاظ التوقيرية والدعاء له.

(٢) ما يتعلق بمقدمة المؤلف

أ) ما يتعلق بالديباجة:

١) اشتمل ٨٣٪ من المقدمات محل الدراسة على ديباجة للمؤلف.

٢) بدأ ٨٨٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ بالبسملة؛ بعضها من وضع المؤلف، وبعضها من وضع أحد طلابه أو من وضع أحد النساخ.

٣) اشتمل٨٠٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ على الحمدلة.

٤) ذكر مؤلفو٤٠٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ الشهادتين.

٥) ذكر مؤلفو ٨٥٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ صيغة للصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

٦) اشتمل ٧١٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ على البعدية، للفصل بين الديباجة والمقدمة المنهجية.

ب) ما يتعلق بالمقدمة المنهجية:

١) أوضح مؤلفو ٢, ٩٥٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ المجال والحدود.

٢) ذكر ٢, ٦٤٪ من مؤلفي كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ منهج التأليف.

٣) ذكر مؤلفو ٥٧٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ مشكلة الدراسة ومبررات التأليف.

٤) ذُكِرَ اسمُ المؤلف في ٣, ٥٢٪ من المقدمات، محل الدراسة.

٥) مهَّد مؤلفو ٢, ٤٥٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ بمدخل تمهيدي.

٦) ذكر ٤٢,٨٪ من مؤلفي كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ الدراسات السابقة.
٧) ذكر مؤلفو ٤٢,٨٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ نظام الترتيب.
٨) أشار ٣٨٪ من المقدمات إلى تقسيم الكتاب، وإلى المادة المرجعية.
٩) ذكر ٣,٣٣٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ مصادر ومراجع الكتاب.
١٠) ذكر ١٦,٦٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ عنوان الكتاب.
١١) أوضح ١٤,٢٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ مدلولات الرموز والمختصرات.
١٢) أشار مؤلفو ٩,٥٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ إلى المجتمع الموجه له الكتاب.
١٣) ذكر مؤلفو ٧٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ عدد المداخل.
١٤) أوضح مؤلفو ٤,٧٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ موقع الكتاب بين نظرائه.
١٥) ذكر مؤلف واحد تاريخ تأليف الكتاب.

جـ) ما يتعلق بخاتمة المقدمة:

١) دعا مؤلفو ٥٠٪ من كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ ربهم في خاتمة مقدماتهم.
٢) اشتملت خاتمة ٣٨٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ على الثناء على الله عز وجل.
٣) أعلن مؤلفو ٣٣٪ من كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ توكلهم على الله تعالى.
٤) اشتملت خاتمة ١٢٪ من المقدمات ـ محل الدراسة ـ على رد المؤلف توفيقه إلى الله، وعلى التماس العذر من القارئ إن وجد خطأً، وعلى الصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى تهيئة القارئ لانتهاء المقدمة والشروع في الكتاب.
٥) خُتِمت مقدمة واحدة من مقدمات كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ بحمد الله تعالى والسلام.

نتائج الدراسة

بعد دراسة مقدمات كتب تراجم القطاع الديني دراسة تحليلية تم الخروج بالنتائج التالية:

١) أكثر المجالات إيرادًا للعناصر المنهجية في مقدماتها هي كتب تراجم الفقهاء المالكية، يليها كتب تراجم الصحابة، ثم كتب تراجم الفقهاء الشافعية، بينما

كان أقلها إيراداً للعناصر المنهجية كتب تراجم الفقهاء الحنابلة.

٢) أكثر الفترات الزمنية إيرادًا للعناصر المنهجية في مقدماتها كتب تراجم القرن الثاني عشر الهجري، تلاه القرن الحادي عشر الهجري، ثم القرن السابع الهجري، بينما كان أقل القرون إيرادًا للعناصر المنهجية كتب التراجم التي ظهرت في القرن العاشر الهجري.

٣) تكوّنت مقدمة كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ من ثلاثة أجزاء: الديباجة، والمقدمة المنهجية، والخاتمة، وأحياناً يزيد جزء رابع هو مقدمة أحد الطلاب.

٤) لم يكن هناك تقنين لترتيب عناصر المقدمة؛ سواء في الديباجة أو المقدمة المنهجية أو الخاتمة. وإنما هي مجموعة عناصر متفق عليها ضمنًا.

٥) أدت مقدمات كتب التراجم وظائف صفحة العنوان، وقائمة المحتويات، والمقدمة المنهجية، والمراجعة العلمية، وقائمة المصادر والمراجع.

٦) انفراد مقدمات كتب التراجم بتأدية وظائف لا تقدمها المقدمات المنهجية في الوقت الحالي، وهي الوظائف التي أدتها المقدمة التي سبقت مقدمة المؤلف والديباجة وخاتمة المقدمة.

٧) النضج المستمر في منهجية مقدمات كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ منذ القرن الثالث الهجري وحتى القرن السابع الهجري الذي شهد قمة النضج المنهجي، ثم بدأ يقل مستوى النضج المنهجي منذ القرن الثامن الهجري حتى وصل إلى أقل مستوياته في القرن العاشر الهجري، ثم توالى صعوده مرة أخرى منذ القرن الحادي عشر الهجري.

٨) ظهور الشخصية الدينية الإسلامية للمؤلف في مقدمات كتب التراجم ـ محل الدراسة ـ وظهور ذلك أكثر في الديباجة والخاتمة .

قائمة المراجع:

١ - ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي: مصنف ابن أبي شيبة. تحقيق: محمد عوامة، مصدر إلكتروني، متاح على: http:// www.almeshkat.net/books/open.php?cat=37&book=2288

٢ - ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة. تحقيق علي بن محمد الدخيل الله . . الرياض: دار العاصمة، ١٩٩٨ . متاح على: المكتبة الشاملة.

٣ - ابن المنصور اليمني، الحسين بن المنصور اليميني: آداب العلماء والمتعلمين. مصدر إلكتروني، متاح على: http://www.islamicbook.ws/amma/adab-alalma-walmtalmin.html

٤ - ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣ .

٥ - ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣ ، متاح على المكتبة الشاملة.

٦ - ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب. . بيروت: دار صادر، ١٩٩٧ ، متاح على: المكتبة الشاملة.

٧ - الأزراري، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب . تحقيق: عصام شعيتو ـ ط١ ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٩٨٧ .

٨ - البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي: الجامع الصحيح، وهو الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١ ، متاح على: المكتبة الشاملة.

٩ - ـــ : الأدب المفرد. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣ ، بيروت : دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٩ ، متاح على: المكتبة الشاملة.

١٠ - البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان. تحقيق: محمد السعيد

بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ .

١١ - الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك: الجامع الكبير: سنن الترمذي. تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي. متاح على: المكتبة الشاملة.

١٢ - التفتازاني، سعد الدين التفتازاني: مختصر المعاني، ط١ ، قم: دار الفكر،١٤١١هـ. متاح على: المكتبة الشاملة.

١٣ - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر . تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت : الناشر المكتبة العصرية ، ١٩٨٦م .

١٤ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن، الرياض: دار عالم الكتب، ٢٠٠٣ .

١٥ - القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا . تحقيق: يوسف علي طويل، دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٧ . الطبعة الأولى . ١٤ مجلد . متاح على: المكتبة الشاملة.

١٦ - الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. تحقيق عدنان درويش ، محمد المصري. . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٨م. كتاب إلكتروني. متاح على: http://islamport.com/w/lqh/Web/3303/364.htm?zoom_highlight=% C7% E1% C7% D3% CA% E5% E1% C7% E1

١٧ - المقريزي: المواعظ والاعتبار، متاح على: http://www.alwarraq.com

١٨ - حافيظ إسماعيلي علوي: اللسانيات في الثقافة العربية وإشكالات التلقي : اللسانيات التمهيدية نموذجًا، متاح على : http://membres.multimania.fr/abedjabri/n58_09hafidi.htm

١٩ - حسن المودن: قراءة في كتاب مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي. د. عباس أرحيلة. متاح على: http://rhilaabas.jeeran.com/rhila49/archive/2008/8/637250.html

٢٠ - داليا عبد الستار الحلوجي: كتب التراجم في التراث العربي من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة: دراسة مرجعية تحليلية. (أطروحة دكتوراه). إشراف: سعد محمد الهجرسي، حامد زيان غانم، القاهرة: داليا الحلوجي،

٢٠٠٤، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم المكتبات والوثائق والمعلومات .

٢١ . سميرة خليل محمود خليل: كتب التراجم في التراث العربي الإسلامي حتى القرن السادس الهجري: دراسة لتغطيتها وتنظيمها (أطروحة ماجستير) القاهرة: جامعة القاهرة .مكتبة كلية الآداب، قسم المكتبات والوثائق شعبة المكتبات. ١٩٨٧ .

٢٢ – شعبان عبد العزيز خليفة: المحاورات في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧ .

٢٣ – عباس أرحيلة: البعدية ؛ قولنا : أما بعد . متاح على: http:// rhilaabas.jeeran.com/rhila49/archive/2009/1/987741.html

٢٤ – ـــ : الحمدلة في ديباجة مقدمة الكتاب في الثقافة الإسلامية. متاح على: http://rhilaabas.jeeran.com/rhila49/archive/2009/1/1008727.html

٢٥ – ـــ : عنوان الكتاب وتسميته، متاح على: http://rhilaabas.jeeran.com/ rhila49/archive/2009/1/971379.html

٢٦ – عبد الستار الحلوجي: المخطوط العربي. ط٢ . جدة: مكتبة مصباح،١٩٨٩.

٢٧ – عبد المجيد صالح بوعزة. الدليل العلمي للطالب العربي في الدراسات العليا في علم المكتبات والمعلومات لإعداد مقترح بحث لرسالة الجامعة. مصدر إلكتروني. متاح على: http://www.alyaseer.net/vb/showthread.php?t=20926

٢٨ – محمد بن إبراهيم الحمد: الارتقاء بالكتابة . الرياض : [د.ن]، ١٤٢٧ هـ . متاح على: http://www.islamhouse.com/p/172588

٢٩ – محمد فتحي عبد الهادي: البحث ومناهجه في علم المكتبات والمعلومات. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢ .

٣٠ – منصور علي عبد السميع: الإعلام بكتب تراجم الأعلام: دراسة دليل ببليوجرافي مصنف . القاهرة: مطبعة الأمانة، ٢٠٠٥ .

٣١ – هاني صبحي العمد: مقومات مناهج التأليف العربي في مقدمات المؤلف: الأدب،عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٨٧ .

٣٢ – ـــ : أدب الكتابة والتأليف عند العرب: نظرة عامة .. عمان : الجامعة الأردنية، ١٩٨٦ .

٣٣ - وداد القاضي: معاجم التراجم: تنظيمها الداخلي وأهميتها الثقافية.ص ص ٨١- ١٠٦ . في: الكتاب في العالم الإسلامي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أكتوبر ٢٠٠٣ ، ٣٢٥ص، (عالم المعرفة؛ ٢٩٧).

٣٤ - يوسف الإدريسي . الخطاب المقدماتي عند العرب : قراءة في مقدمة الكتاب للدكتور عباس أرحيلة، متاح على: http://elidrissiyoussef.jeeran.com/archive/2009/9/937138.html